مُحَاكَمَة إِلَهة

إيناس فيصل

الكتاب: محاكمة إلهة
قصص قصيرة

المؤلف: إيناس فيصل

رقم الإيداع: ١٢٠٧٢ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-901-3
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٣

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

مُحَاكَمَة إِلَهة

مجموعة قصصية

إيناس فيصل

إهـداء

إلى أبي الحبيب، الأستاذ الدكتور فيصل هاشم شمس الدين:
غمرك الله بنوره في نعيمك، ستظل فخري وضيائي في دربي، وساظلُّ أُجابِه، ولن أنسَ كلماتك يا أبي ما حييت: (يا ابنتي عليكِ بالمُجابهة في الحياة). كُنتَ أول من استذكرتَ لي مادة «علم الجمال» رغم تخصُّصك العلمي، وشرحتَها لي شرحًا وافيًا وأهديتني جميع كُتبها، لأنكَ كُنتَ مُتطلِّعًا لكل جميل، يا أجمل ما رأت ابنة من أبيها... أكرمك الله في رضوانه.

إلى أمي نور البيت وإخوتي:

أدامكم الله شموعًا نستدفئ ببعضنا البعض.

ليست الأمور كما تبدو عليه، ولا الأشخاص كما نتوسَّمهم
ولا جُلّ ما تمسَّكنا وتوهَّمنا أنه الصَّواب يكون كذلك
ثمة أشياء تُترَك للقدر، وهو يُفاجئُنا ويُدهِشُنا دائمًا
وسنظل نُدهَش إلى أن تُغادِر أرواحُنا أجسادَنا
أمَّا مِنْ أَجْل الآن، فيكفي أن نعرف ذواتنا ونُؤمِنُ بها

أخبار النساء في العصور الغابرة

على بُعد أمتار من ضِفاف النهر؛ تطلُّ المنازل المُزخرفة والمُحاطة بسورٍ عالٍ وبوابات، يبيت التُّجار خارجها بعد جنوح الليل. أمام بعض المنازل مزارع من خيرات الأرض التي تتشابه طبائعها مع طِباع سكانها وعقائدهم الروحية.

ما جاع إنسانٌ أو طائر أو حيوان، ولا خسر تاجر، إلى أن وقعت الحادثة التي لم تحدث منذ سنوات؛ انخفض منسوب النهر وانتقص محصول القمح وبقية المحاصيل الزراعية حد العدم.

في البدء اِعتقد الأهالي أن السبب المنطقي والأوحد هو لعنة الساحرة التي تقطن بينهم.

ولما تنامى السمع إلى رجال الدولة، أمر الحاجب بوضعها في السجن.

•••

من داخل السجن، نظر الحارس لزميله خائفًا:

– ماذا تنتظر، هيا كبّلها بالسلاسل.

– أنا لدي عائلة، ولن نأمن شر هذه الساحرة، كبّلها أنت.

توسل إليه الحارس الآخر:

– هيا قبل أن يأتي كبير الحُرَّاس.

صاحتْ المرأة في ثوبها الفضفاض من وسط الظلام آمرة:

– لا تقترب مني أيها الحارس وإلا سحرتكَ قِردًا وجعلتُكَ أضحوكة.

قهقه الحارس الآخر:

– هذا ليس سِحرًا وإنما العودة لأصل الأشياء، فزوجته تطلق عليه قردًا... واستمر يقهقه.

صاحتْ المرأة:

– اخرس أنت الآخر، أنا أعلمُ ما ترويه زوجتك عنك.

ارتبك الحارس وتجمَّدت ملامحه:

– العفو منكِ أيتها الساحرة الجليلة.

أشاحتْ المرأة بكفها:

– لا تنادِني بساحرة، اذهب وأتِ لي بكوب ووعاء ماء دافئ حتى أغسل قدمي وأستريح من التعب، ولا أريد سماع ثرثرتكم، الليلة أنتم خُدامي.

تلعثم الحارس:

– أمرُكِ أيتها الشريفة.

دخل الحاجب وكبير الحُرَّاس، فوجدا الحارسين يجلسان عند قَدم المرأة.

قال كبير الحُرَّاس مُنذعرًا:

– انظر سيدي الحاجب، حتى حرس السجن سخَّرتهم

لخدمتها.

تعجَّب الحاجب ثم صاح آمرًا:
- أتوا بها إلى قصر الخليفة.

•••

وقفتْ المرأة في قبضة الحرس أمام الباب العظيم المُزخرَف بالأحجار الكريمة، منتظرة السماح بالدخول، حثَّها كبير الحُرَّاس على تذكُّر القواعد وبضرورة اِلتزامها الأدب واختصار القول أمام الخليفة وإلا حكمتْ على نفسها بالهلاك.

ثم تمتم مذعورًا عندما تذكرَّ أنها ساحرة:
- ماذا سنفعل إن سحرتْ تلك المرأة الخليفة؟! ياويلنا، هلكت البلاد.

تدخل المرأة القاعة الممرَّدة بالمرمر، تنحني ثم ترفع رأسها فترى شابًا في ريعانه، وسيمًا، ذا بشرة قمحية، على وجهه أمارات الفروسية، يتربَّع على عرش فخم مُزيَّن بالألماس والمَرجان.

نظر الخليفة إليها مشدوهًا، توقَّع أن يرى امرأة عجوز أو شمطاء ذات ملامح قاسية، لكنه فوجِئ بامرأة شابة وضَّاءة، ثوبها الفضفاض لم يخفِ رشاقة وانحنايات جسدها وقسمات وجهها الفاتنة.

قال بصوت خافت على مسمع من الحاجب:
- هذه لا تُشبِه الساحرات، وإنما الحوريات.

نظر الحاجب إليها فوجدها امرأة عادية، فانحنى هامسًا في أُذُن الخليفة:

– مولاي لا تنخدع بسحرها.

سألها الخليفة:

– مَنْ أنتِ أيتها المرأة؟ ما مُرادك؟ ألا تعلمين عقوبة ممارسة السِحر؟

أجابته بصوتٍ رزين:

– اسمي «فاريهان»، جِئتُ من بلاد ما وراء النهر، ولم أمارس السحر قط، هذا ما أطلقه عليَّ نساء البلدة لأن رجالهم يُفتَنون بي.

نظر الخليفة مرة أخرى مُتفحِّصًا، شيء ما جاذب في هذه المرأة غير ملامحها... ابتدرها:

– لقد سخَّرتِ حُراس السجن لخدمتك.

– لم يحدث، مخاوفهم هي التي سخَّرتهم.

– وما قولك فى التعويذات التي تُعطيها للنساء لسحر أزواجهن؟

– لم أعطهن تعويذات، بل بعض النصائح، وكلمات الحُبّ على ورقٍ مطويّ ليعتقدوا أنه طلسم، فهم يؤمنون بالخرافات أكثر من المنطق.

همس الحاجب في أُذُن الخليفة:

– مولاي، هذه المرأة عزباء، أليس عجبًا أن تعطيهن نصائح عن أمورٍ لم تختبرها؟!

أومأ الخليفة مندهشًا، كيف لم تتزوج رغم جمالها الباهر... سألها مُتهكِّمًا:

– ألا يوجد رجل تُسحريه ليتزوجك مثلما سحرتِ رجال البلدة؟

– لم أسحرهم، ولم أعطِ النساء نصائح عن الحياة الزوجية، بل نصائح عن حقوقهن التي بخسها الرجال مُتحججين بعقائد خاطئة.

– ماذا تقصدين؟

– قوانين توارث الحُكم يجب أن تتبدَّل. كما يجب أن تُلغى وصاية الرجل على المرأة. لا داعِ لوصاية أحد على الآخر، فالرجل والمرأة خُلِقا من نفس الطين اللازب، ليس لأحد أفضلية على الآخر، كما أن هذه الأحكام لم ينزل الله بها من سلطان، المرأة هي هبة الحياة، ما الضير في أن تُحترم إرادتها و...

قاطعها مُشيرًا بكفهِ:

– كفاكِ ثرثرة. ظللتِ بائرًا ليس لأنك لم تستطيعي سِحر الرجال، بل لأنكِ سليطة اللسان.

– بل لأنه لا يستطيع رجلٌ الاِقتراب مني.

صاح الخليفة:

– بالطبع لأنكِ امرأة بشعة مُخيفة.

– لا بل يوجد سبب آخر، ولا أستطيع البوح به أمام الحضور.

– وما هو؟ وما شأني وما شأن الحضور؟

– بل شأنك أيها الخليفة.

اندهش الخليفة:

– أنا؟

– نعم.

أمرَ الخليفة بإخلاء الديوان، حاول الحاجب إثناءه عن البقاء مع تلك الساحرة، ولكن الخليفة أصرَّ آمِرًا. ثم التفتَ إليها:

– ها قد أصبحنا على اِنفراد، ماهو السبب، وماذا تريدين؟

ترفع المرأه ثوبها عنها....

صاح الخليفة:

– ماذا أنتِ فاعلة يا امرأة؟!

تستمر برفع ثوبها، لتُظهِر وشمًا صغيرًا أعلى فخذها، مكتوبًا بخط صغير غير واضح...

يقترب الخليفة متوجِّسًا ليرى الوشم، ويتبين المكتوب... فيقرأ اسمه!

صاح غاضبًا:

– امرأة ملعونة. أتتوهمين أنكِ تستطيعين خداع الخليفة؟ سيُزال هذا الوشم، حتى وإن أحرقتُ جسدِك.

ثم صرخ مُناديًا:

– نادوا كبير الأطباء.

•••

بعد أن فحص الطبيب فاريهان، ذاهِلًا:

– هذا ليس وشمًا، وإنما شامة.

ثم أقرَّ مُتعجِّبًا:

– لم أرَ من قبل شامة مخطوطة.

تساءل الخليفة مُندهِشًا عن التفسير، فأجابه الطبيب بأنه ليس لديه علم، لذلك سيستعين بمعلمه وشيخه عالم الطب والفلك، وأنه سيُحضره في صباح الغد.

اِلتفتَ الخليفة إلى فاريهان مُقطبًا، سألها عن تفسيرها عن تلك الشامة.

– لا أدري، هذه الشامة على جسدي منذ وُلِدتُ، أوصتني جدتي بكتم سري، وعندما كبرتُ وخبرتُ ماهية المكتوب على جسدي لم أُخبر أحدًا، لكني اضطُرِرت للأفصاح الآن لأنني أواجه عقوبة الموت.

•••

أتى الشيخ في الصباح، أُقتيَدت فاريهان إلى غُرفة منعزلة.

أعرب الشيخ مذعورًا بعد فحصها:

– لا أستطيع تفسير الأمر بدقة، لكني قرأتُ من قبل عن أشخاص يولدون بعلامات على أجسادهم سواء مخطوطة أو مرسومة، وتلك العلامات تُعبِّر عن رسائل غيبية واجبة التنفيذ، وبما أن تلك المرأة تحمل اسمك فمصيرك مربوطٌ بها، ويجب أن تقترن بها.

زفر الخليفة مُستنكرًا:

– ماذا إن لم أفعل؟

– إن لم تنفِّذ الرسالة مولاي، فمن المُحتمَل أن يتسبب ذلك بلعنة لك وللبلاد، بما أن مصير البلاد مرهونٌ بمصيرك.

صاح الخليفة:

– ولِمَ تلك المرأة يُربَط مصيري بها؟

أجابه الشيخ:

– ثمة ظواهر ليس لها تفسير، يُرسلها الله لعباده الصالحين، فعلينا تتبع العلامات، والشامة على جسد تلك المرأة علامة ذات مغزى.

بدا الحاجب قلِقًا:

– مولاي أنت تعلم الأعراف، لا يجوز لك الزواج بامرأة بسيطة من عامة الشعب، كما أنها ليست من سُلالة الحُكم، وهي أيضًا ليست من الإماء لتكون لك، هي امرأة حُرَّة، فكيف ستستطيع الدخول بها؟

أمره الخليفة بسرعة إيجاد حل للأمر قبل أن تتفاقم اللعنة.

– ثمة حل يا مولاي، أن تهب نفسها لك لتكون من الإماء.

– وما الذي يجعلها تتنازل عن حريتها؟

– النجاه من الموت.

– لقد أُسقطَت عنها التهم، لا يوجد عقوبة حتى تنجو من الموت.

ابتدره الحاجب:

– نتهمها بالعصيان إن لم تنفذ الأمر.

زفر الخليفة بفارغ الصبر من مقترحات حاجبه الحمقاء:

– هذا حلٌ جائر لن يُبعد عنا اللعنة، كما أنها امرأة مُسلمة.

– إذًا تهب نفسها لك، ثم تعتِّقها وتتزوجها.

وأضاف:

– الجميع يلقبونها بالساحرة ولا يعرفون ديانتها، كما أن هذا ليس سببًا وإنما ستهب نفسها، يمكننا أخذ فتوى من المُفتي.

أومأ الخليفة:

– حلٌ منطقي ومقبول. كما أنه الحل الوحيد.

•••

أرسل الخليفة في طلبها وانتظر في مجلسه الخاص يُفكِّر، لا ينكر أنها امرأة فاتنة وقد راقتْ له.

دخلتْ فاريهان وهو غارقٌ في أفكاره، نظر لها فشعر أن لحضورها اهتزازٌ في أرجاء المجلس كامبراطورة حاكمة، تساءل في نفسه عن سِرِّ تلك المرأة التي لا تهاب شيئًا، أَذلك لأنها ساحرة؟

اعتدل في مجلسه وسألها:

– أخبريني فاريهان، ما هو ردك على طلبي؟

– سامحني أيها الخليفة، لكني لن أُفرِّط فى حُريتي.

تفاجأ كاتمًا غضبه:

– ولكن ليس لنا حل آخر لتنفيذ الرسالة. ثم أين ولاؤك؟

– أبذل روحي من أجل هذه الأرض، لكني أموتُ حُرَّة.

صاح:

– لقد تماديتِ كثيرًا، نحن في أزمة وعلينا التخلص من لعنتك.

– هي ليست لعنتي ولا سبيل للتخلص من اللعنة إلا بالعدل؛ بيدك تغير القوانين الجائرة، الإنسان هو من خلقها.

ازداد غضبه:

– كفى. هل عليّ تغيير قوانين ديننا الحنيف؟ أم أن أُقلِّل من شأن الرجال لينشزن عنهم نسائهم.

تمتمتْ:

– دين الله براء مما تتفوهون.

ثم تطلَّعت إليه:

– أيها الخليفة العظيم، عرشك الثمين المُزيَّن بالألماس يكفي لإطعام أهل البلدة.

أشار إليها:

– كُنتُ سأرفعكِ لمنزلةٍ عالية.

ثم صاح عاقدًا حاجبيه:

– امرأة بشعة، سليطة اللسان.

– لكن الأمر ليس تغيير القوانين وحُريتي فحسب، إنما أنا لن أُعطِ روحي ونفسي لرجل دون حُبّ؛ مهما كانت المزايا.

هتف:

– وهل كل نساء البلدة تزوجنَّ عن حُبّ؟ أتريدين من النساء أن يتبعنَّ الهوى؟

– لا، لذلك يعشن حبيسات خاضعات بائسات، لا يفرقن بؤسًا عن إمائك في ذلك القصر.

أجابها حانقًا مطبِقًا على أسنانه:

– أيَّ بؤس؟ هُنَّ يعشن في ترفٍ منعَّمات.

– أيَّ ترف وهن ينتظرن الحنو منكَ كل ليلة ويرتضين بالقليل ومنهن من يموتنَ وحيدات؟ ثم لِمَ كل هؤلاء النساء وأنت لديك زوجتان؟

– ألم يُحلِّل الشرع أربعًا؟ ماذا سيشكِّل فارق العدد لديكِ؟

– جُبِل القلب على أن يسكُنه محبوبٌ واحد، أما من أسرف من الرجال في استخدام رخصة اللّه، فقد حرم نفسه التنعُّم بالحُبِّ الهنيّ.

كتم غيظه:

– أتطاولين على دين الله؟

– حاشا للّه، بل أتطاول على أحكام البشر.

أشار لها غاضبًا بالخروج، مُتسائِلًا، لِمَ لم يمنع نفسه من قتلها!

– لا لن أقتلها، سأقطع لسانها أولًا، امرأة سليطة.

دخل الحاجب مندهشًا من مولاه الذي أصبح يحدِّث نفسه. تنحنح:

– مولاي هذه المرأة لن تهب نفسها لك إلا إذا هوتك.

أشاح الخليفة بيده:

– لا أريد هوى تلك المرأة سليطة اللسان وسليلة الشياطين.

– ولكن لابد من إقناعها.

صاح الخليفة:

– وما الذي عليّ فعله؟

– مثلاً أن تُلاطفها.

اشتد حنق الخليفة:

– عظيم! أترك شؤون البلاد وأتفرغ لمُلاطفة النساء.

أطرق الحاجب:

– سامحني مولاي، ولكن هذا أيضًا شأنٌ من شؤون البلاد.

هتف الخليفة غاضبًا وأمر دون رغبة منه بتجهيز الهدايا وإرسالها إلى سليلة الشياطين.

ثم التفتَ إلى الحاحب وزفر حانقًا:

– إن لم يُجدي هذا الحل سوف أسجنك بدلًا عنها.

•••

صعدتْ فاريهان سُلمًا مرمريًّا يصلها بحديقة تقع على ربوة عالية تطل على البلدة، مزروع بها شتى أنواع الأزهار من الياسمين والفُل والزنابق وأشجار العنب والليمون.

تدخل على الخليفة مُتبسمة مرتدية ثوب أبيض من الحرير مطرَّز بخيوط الذهب. تفاجأ من إشراقة طلتها، فبادلها الاِبتسامة.

– يبدو أن الحديقة أعجبتك.

أطرقتْ في احترام:

– رائعة.

– وأنتِ أيضًا لديكِ اِبتسامة رائعة، تبدين مثل المَلِكات بهذا الثوب.

نظرتْ إليه في خجل:

– شكرًا على الهدايا.

أدرك أنه لا يلاطفها فحسب، بل أن ابتسامتها رائعة.

– ولكنكِ تبدين بشعة حين تتحدثين.

قهقهتْ.

سألها:

– أخبريني، ما سِرُّكِ؟

– كيف؟

– سِرُّ اِختلافك عن نساء البلدة؟ بل عن نساء القصر؛ أنتِ لا تتحدثين مثل ساحرة ولكن تبدين وكأنكِ من الحكيمات.

ابتسمتْ:

– سررتُ أنكَ أفصحتَ أن الحِكمة ليست حِكرًا على الرجال.

– ولِمَ لا.

نظرتْ مطولًا داخل عينيه، فشعر وكأنه مسلوب الإرادة؛ كأنه تحت تأثير سحر.

ثم أطرقتْ بأهدابها ونظرتْ نحو الأُفق:

– كانتْ جدتي امرأة مطّلعة، تعلمتْ الكثير من العلوم والفنون، والفضل يعود لجدي؛ كانت معتقداته عن المرأة مغايرة لرجال قبيلته؛ أخبرها دائمًا، أن عقل المرأة أكثر إغواءً من جسدها، وهي علَّمتني بدورها الكثير.

سألها:

– ألهذا استحكمكِ الأهالي في قضاياهم، حتى اعتقدوا أنكِ ساحرة؟

– نعم، هم يكفرون بقدرة المرأة وعقلها إلى الحد الذي يعتقدون أن أي تميُّز لديها هو نتيجة قوة خفية.

– فهمتُ. وما هي مشاكل النساء مع أزواجهن؟

– مجرد نقص فى المودة والصِدق، كما أن الأعباء زادتْ على النساء، ثمة نساء منذ أزمنة بعيدة كُنَّ يحاربن لتغيير القوانين، وأخريات كنَّ يحاربن أنفسهن ويرتضين بالخضوع عن قناعة، قرون مضت ولم يتغير قانون أو معتقد واحد في بلاد العرب، أكادُ أُجزم أن القوانين لن تتغير حتى زوال الخليقة، بل ازدادتْ جورًا، كما أصبحن النساء يقُمن بمهام الرجال، بينما يفرض الرجال عليهن سلطتهم في كل شيء.

– وبما كنتِ تنصحين أولئك النساء؟

– يجب أن تُحِبّ المرأة نفسها حتى يكون بمقدورها منح الحُبّ.

– كيف؟

– بأن تدلِّل نفسها؛ تمنح لنفسها الاِهتمام قبل أن يُمنَح لها، ترى أنها أجمل النساء، وتستمتع بالرفاهية؛ فالرفاهية ليست في المال فقط ؛ يكفي أن تسترخي وتدلِّل نفسها بحمام ماء دافئ وزيوت معطرة وتنثر على جسدها الأزهار، كما تمنح الاهتمام لعقلها وأن تثق به.

اِبتدرها:

– وأنتِ فاريهان؟ أترين نفسك جميلة؟

ابتسمتْ وهي تنظر مُجددًا بعمق في عينيه:

– أرى نفسي أجمل النساء.

ثم التفتتْ نحو الأفق مرةً أخرى:

– اِعتدتُ في بيت جدتي، تدليل نفسي من حين لآخر بحمام الأعشاب والورود إسوةً بكليوباترا، تعلَّمتُ منها التيقُّن بقوة حواء، كانت تخبرني: «يا بنيتي أنتِ لا تعلمين القوة التي تمتلكها المرأة؛ وضع الله سر الحياة فيها؛ أعطاها حدسًا لتتيقن لما آتٍ، وقوةً في رحمها لتهب الحياة، وقلبًا لو حكمَ العالم لتوقَّفتْ الصراعات والمشقَّات». كنتُ أسألُها: «وماذا عن شَرِّ بعض النسوة؟». كانت تبتسم في حبور: «الشر استثناء، أما النساء فلديهن قوة كُبتَت بفعل الهيمنة الذكورية للرجال ووضع الوصاية عليهن والتحكُّم بأقدارهن». سألتُها ذات يوم: «ما

الذي عليَ فعله؟». أخبرتني: « يكفي أن تعلمي الحقيقة؛ بأن الله أعطاكِ الخلافة على الأرض مثل الرجل، ولن تنتظري من رَجُلك أن يمنحها لكِ، لأنه لن يفعل، لن يمنحها لك أبدًا، إلا أن يكون رَجُلًا». عندما كنتُ أصبُّ الأعشاب والزيوت كنتُ أُفكِّر؛ ماذا فعلتْ كليوباترا لتحكُم مملكتها وتُخضِع العالم وقلب حبيبها أنطونيو. هنيئًا لكن بنات مصر بجدتكن كليوباترا، أرى أنكن ستسرن على دربها إن لم أُخطِئ وتنسيْن قوتكن بعد أن يسلبها منكن الرجال.

نظر إلى صفاء وجهها، اشتهى أن يُقبِّل شفاهها، فاقترب متوجسًا، كمن يقترب من فاكهة مُحرَّمة.

شعرتْ أنها مُنجذبة له فهو قدرها المحتوم، واسمه مختومٌ على جسدها. حدَّثته هامسة:

– ليس الآن

– ولكن متى؟

– اجعلني أقع في حُبك.

نظرتْ إلى عينيه:

– عبِّر لي عن شعورك الآن.

– أريدك فاريهان، أنتِ أكثر امرأة فاتنة رأيتها.

– بما فُتنِت؟

– سِحركِ، حديثك.

اِقتربَ يهمس:

– أريد شفاهك.

– أنا لك ولكن...

اقتربَ أكثر:

– ماذا؟

– لن أتنازل عن حريتي.

– ألا تريدين قلبي وكنوزي؟

– أريدك أن تعدني بتغيير القوانين.

وضع يده على موضع الشامة، بدأتْ ترتجف بين يديه.

حدَّثها وأنفاسه لاهثة:

– فاريهان يجب أن نُنفِّذ قدرنا الآن.

اقترب ليقبِّلها...

ابتعدتْ قليلًا ولا تزال في ضعفها:

– أنتَ لا تحبني، بل ترغبني.

التصق بها.

أحسَّتْ بمشاعر الحُبّ تجتاحها.

– بل أُحبكِ وأريدكِ بجنون

– حتى وإن كُنتَ تحبني إن ذُقتَ فاكهتي فستكون قد امتلأتَ، حينها ستبحث عن فاكهةٍ أخرى.

ثم بصعوبة قاومتْ أخيرًا وأقفلتْ باب جنَّتها.

•••

(أنتَ عشقي وحُبي الوحيد، لكني لم آلف العيش هكذا؛ أن تشاركني فى حبيبي نساء أُخريات. أنتَ لا تدري ما أشعر به وأنت فى أحضان امرأة أخرى؛ أرسم تفاصيل لقائكما فى عقلي، وأشعر حينها بتمزُّق قلبى وبرودة أطرافي.

أنا أميرة جِئتُ من بلادٍ تركها أجدادي الملوك بسبب التمرُّد والحروب الأهلية ووُلِدتُ هنا في هذه البلاد وعلى جسدي تلك الشامة، حاربتُ قدري وسعيتُ للهروب، لكني وقعتُ في حبك.

أردتُ فقط حُبك، وأردتُ تغيير ما لم تستطع تغييره نساء كُثريات، ما جرى علي كان سببه القوانين والمعتقادات الجائرة ضد النساء، والتي ترفض أنت تغييرها).

توقيع: الأميرة فاريهان

•••

كان قد أمر بإحضارها عندما كوَّم الرسالة غاضبًا.

– كيف تجرؤين على كتم سرك؟ هذا تضليل.

نظرتْ إليه في أسى،

– كنتُ أتوسمُ فيك قلب وعقل الفارس؛ أن تعدل، أن تنصر كلمة الحق، هذه القوانين لم ينزل اللّه بها من سلطان.

– ولكن هذه فتاوى الشيوخ.

صاحتْ:

– فتاوى باطلة. إن كُنتَ حاكم وخليفة تلك البلاد، يجب

عليك إعلاء كلمة الله.

بدا عليه الضعف أمام مشاعره تجاهها:

– أنا لا أستطيع تغيير قوانين عفَا عليها قرون من الزمن بتلك البساطة.

نظرتْ إليه مُنخذِلة، لم تتمالك نفسها، طفرتْ دمعة من عينها:

– ليس الأمر هكذا، ولكنك لا تريد.

اقترب ليربتْ عليها...

تطلعتْ إلى عينيه:

– أنا لا أعلمُ هل جُرِحتُ بيدكَ أم بيد القدر؟ اِسمح لي أن أعود إلى بيت جدتي المتواضع على الشاطئ، أنا لا أنتمي إلى هنا، هذا رجائي.

سمح لها مُشيرًا بكفه.

وقبل أن تهمَّ بالرحيل، التفتتْ إليه:

– لدي سِرٌّ آخر لم أُخبرك به.

ترقَّب مُتوجِّسًا، كما لو أن بوابة أسرار فُتِحت كَرةً واحدة:

– وما هو؟

– ليست لي أيّة علاقة بتلك اللعنة أو بكَ، وإن كانت الشامة لها علاقة بالقدر، إلا أن اللعنة لن تُحَل إلا عند ظهور الغسق الأحمر.

لم يفهمها وكأنها تُلقي على سمعه أحجيات.

– وماهو الغسق الأحمر؟ أليس هذا لون الغسق المعتاد أم هذا غموض جديد من أسرارِك؟ أتتلاعبين بي؟

– لا أدري ولكن كل حاكم سيرى الغسق الأحمر ليُبصِر الحقيقة، هذا ما خُبِّرتُ به، ودوَّنه التاريخ.

– إذًا، لِمَ لم تخبريني من قبل؟

– لأني قرأتُ عن أمر اللعنة في المؤرخات، لكني لم أُخبَر بأمر الشامة.

عقَّبت مُطرقة بعينٍ دامعة:

– ظننتُ أنكَ قدري.

•••

تركتْ عالمه، فبكل اتساعه وشساعته ضاق على قلبها. وبكل أزهاره وحدائقه الجميلة لا يوجد هناك شاطئ تُلامس فيه المياه المالحة الدافئة قدميها.

عادتْ إلى بيت جدتها، اكتفتْ بالأشجار التى زرعتها. البحر والزرع يحتضنانها، والسماء تُشفيها، الطبيعة هي أُمُّ البشر، إليها يعودون.

تلمح عصفورين من عصافير الحُبّ المُلوَّنة يغردان فَرِحين، والذَّكَر يُداعِب وليفته، يحنو عليها؛ يُقدِّم لها الطعام، تتأملهما بكثيرٍ من الحُبّ، تتساءل: لِمَ لسنا كهذين الطائرين؟ لِمَ لا تكتفي بوليفة واحدة؟... كيف كنتِ ستقوين على الدخول فى منافسة مع كل أولئك النسوة؟

توصلتْ بتفكيرها أنه لا يوجد فائدة لهذه المنافسة، فأولاد آدم خُلِقوا على هذا المنوال؛ لن يكتفوا بواحدة، لكن حواء بالإمكان أن تكتفي بذاتها.

•••

مَرَّتْ أشهر والبلاد على حالها، لم تذهب اللعنة ولم يصلها خبرٌ عن حبيبها، أصبحتْ تتوق لرؤياه، تُقر بأنها أحبته وترغبه.

•••

أُشيع في البلاد أن المفتي وقاضي القُضاة وزوجات الخليفة اِنقلبوا على الحُكم، ثاروا لأن الخليفة اِنتقص من رواتبهم الضخمة لتوفير النفقات في ظل الأزمة حتى لا يجوع أفراد الشعب. اتفق رجال الدين مع القضاة على إصدار فتوى بأن حُكم الخليفة مُسقَط شرعًا.

أخبرتْها جدتها من قبل أن بعض رجال الدين على استعداد أن يثوروا على الإله ذاته إن تعارض مع مصالحهم، فكما أفتوا من قبل بالقوانين الجائرة ضد النساء، يفتون الآن بكل ما تُمليه عليهم أهواؤهم.

ولكن ماذا عن زوجاته؟ أيكون الغدر سهلًا لأسباب واهية؟

أدركتْ أن الغدر لا يحتاج لمُبرِّر جسيم حتى يُرتكَب.

فجأة تحولتْ السماء للون أحمر قاني، هرع الأهالي إلى منازلهم، يبدو أن حربًا أهلية بدأتْ، ونيران المدفعية وصلتْ للسماء. هذا يعني أن الخليفة لم يستجب لقرارتهم.

تمتمتْ فاريهان:

ـ «الغسق الأحمر»

عزمتْ على كتابة رسالة للخليفة، استعانتْ بأحد الحُرَّاس لإيصالها:

ـ «لا تخف، سوف تنتهي المعركة وتنتصر بمجرد جزِّ أصل السوس الناخر في العَظْم».

•••

(كان لابد للشمس أن تغرُب
وأن تُلبَد السماء بالغسق الدامي
ويندلع البرُكان
وتُبعثَر الأشياء
ويسود الظَّلام والألم
ثم ينهمر الغَيث بعد الغُيوم
ويسطع النور لنجد الخلاص والبلسم الشافي
هكذا تُولَد المَعرِفة وتنطقُ الحقيقة).

بنات حواء ما زلنَّ لم يدركن ذلك، مَنْ وُلِدتْ من أرحامهن الحيوات، ثم تمَّ سحب بُساط السُّلطة من تحت أقدامهن...

ما زال أمامهن الطريق لاِستعادة قوتهن.

•••

ليالٍ بظلامها ولَّتْ، وانتصف قُرص الشمس في السماء. جلستْ أمام الشاطئ، هو مُتنفَّسها، لأول مرة تشعر بنعومة الرمال ودغدغة النسيم، تنفَّستْ الصعداء، معرفة الحقيقة لها مذاق آخر.

ليست الأمور كما تبدو عليه، ولا الأشخاص كما نتوسَّمهم ولا جُلّ ما تمسَّكنا وتوهَّمنا أنه الصَّواب يكون كذلك، ثمة أشياء تُترَك للقدر، وهو يُفاجئُنا ويُدهِشُنا دائمًا، وسنظل نُدهَش إلى أن تُغادِر أرواحُنا أجسادَنا... أمَّا مِنْ أَجْل الآن، فيكفي أن نعرف ذواتنا ونُؤمِنُ بها.

تفاجآت بلمسة يدٍّ حانية على كتفها، تعرفها جيدًا...

تطلعتْ إلى الحبيب العائد بعد أشهر، يبدو كأنه فرسٌ شاحب أُنهِكَ بعد ليالي قتالٍ دامية.

احتضنته حضنًا طويلاً، دافئًا، كماءٍ يرويهما بعد ظمأ، كفضاءٍ شاسعٍ يتسع بعد ضيق... اِتحدا آدم وحواء.

– اشتقتُ لعينيكِ.

استلقيا على الشاطئ، تحسَّس موضع الشامة، تلك مخطوطة القدر التي جمعتهما، أمامهما منظر الشمس أوشكت على الغروب، وأشعتها تُدفئهما من بعيد.

مُحاكَمة إلهة

هبطتْ من السماء الى الأرض بحثًا عن أسطورةِ عِشقها، اسمه المُقدَّر لها مُنذ أزمنة.

يكاد يكون مُقدَّرًا قبل بِدء الكون. كيف لا تعلم وهي إلهة، صنعتها ربَّةُ الحُبِّ والجمال من رُوحها، أعطتها نفس قوامها وقسماتها الوضَّاءة؛ وجنتيها النضرتين كقُرصي الشمس؛ شعرها المخملي المُسافِر؛ نظرتها الفاتنة التي يهيمُ بها الآلهةِ والبشر.

أمَّنتها ربة الجمال أن لا تُفرِّط فى قلبها؛ عليها أن تكون معشوقة لا عاشقة. لم تُعِر الإلهة أهمية للوصية؛ لم تلتقِ بالرجل الذي يلمس شِغاف قلبها ويجد مفاتيحها، فمن ذا الذي يستطيع الوصول لبابها.

لم تدرِ الإلهة أنها ستعشق يومًا بشريًّا!

اجتمعت الآلهة لإثنائها عن رغبتها... بدأتْ المُحاكمة. تساقطتْ عليها التُّهَم:

– كيف تقترنين ببشريّ وأنتِ حُلمُ الآلهةِ والبشر؟!

حذَّرتها إلهة القمر، فهي مُطَّلعة على أسرار البشر وخبايهم ليلاً:

– البشر مُتغيِّرون.

وافقها الرأى إله الشمس:

- بالفعل، ما يُبدونه ليلاً يخفونه نهارًا.

فاجأتها ربَّة الحُبِّ والجمال بضحكة ماجنة، بعدما علمتْ أن الإلهة التى صنعتْها تخلَّتْ عن وصيتها قائلة:

- الحُبّ هو المُسمَّى الراقي لكلمة «رغبة» والرغبة لحظية، البشر لا يُحِبون، هم يرتكبون جميع الشرور بِاسم الحُبّ.

حذَّرها حاكم الآلهة بصوتٍ كالرعد:

- إذا لم تتخلِ عن حُبك لهذا البشرى ستُطرَدين من السماء بلا عودة وستحكُمين على نفسك بالعذاب الأبدي، كما لن يهنأ قلبِكِ.

أخبرها إله الخمر، صانع النشوى واللذة الوهميين:

- الحُبّ ككأس الخمر، يرتشفُ المَرء منه في بدئه بشوق ونشوى ثم ما يلبث أن يمتلئ جوفه فيُعرض عنه، فالبشر كالسُّكارَى؛ مُغيَّبون عن الحقائق؛ يجهلون قيمة الأشياء وحقيقتها، لذا لن ينعموا بالسعادةِ المُطلقة.

لم تستمع لأحدٍ من الآلهة، لم تستجب للنُّصح، حُكِم عليها بالطرد.

هبطتْ باحثةً عنه لترتمي فى أحضانهِ. جمعهما القدر، افتتن بها ولم تقاوِم، هو من نفذتْ سِهامه إلى قلبها، تذكَّرتْ كلماته البارعة فشعرتْ بالنشوى، استقبلها بشوق في مملكته، أجلسها على عرشه، منحته نظرة دلال لم تمنحها لأحد من الآلهة والبشر.

مالتْ على أُذنهِ هامسة:
- سأمنحكَ قوة من قوتي،
سأجعلكَ تملأ العالم انتصارًا،
سأُسقيكَ شراب الخُلد،
وأمنحك السعادة والعشق الأبديين.

انحنى أمامها مُقبَّلًا كفها الناعم، اجتاحه عبيرها، نهضتْ وألقت بأمواج شعرها خلف ظهرها مُمسِكة أزرار ثوبها تحلها وهو ناظرًا مُترقِّبًا مشدوهًا، أدهشه ما رأى، لم يرَ جسدًا إلهيًا من قبل، عيناها البرَّاقتان تجذبانه. وقع داخل هالتها مُنذهلًا، هل أصبحت الإلهة عاشقة له؟!

ظلَّ العِشق مُشتعلًا ليالٍ. تنعَّمَ بوجودها في مملكته المتواضعة مقارنةً بمملكتها في السماء. يقُصّ عليها معاركه وانتصارته، تغفو على حكاياه وأنفاسه مُقترنة بأنفاسها، لم يبتعد حتى في أحلامها، خُيِّل إليها كونها إلهة أنها ستُغنيه عن جميع النساء، لكن أخبرتها الآلهة من قبل «البشر لا يكتفون»!

ترك أحضانها إلى امرأة أُخرى بشرية! غضبتْ، نيران تجتاحها تكادُ تحرق مملكته، بل الكون بأسره. توجهتْ إليه وعيناها تبُثان حِمَمًا:
-كيف تجرؤ؟! سوف أحرق مملكتك، لا تعرف غضبي كيف يكون، لا تدري غضب الآلهة.

أجابها بحدة:

ـ لستِ إلهة هنا، هنا مملكتي وقوانيني.

صاحتْ:

ـ بل أنا إلهة كُل مكان.

اشتد غضبه:

ـ هل تجرؤين على محاسبة الملك؟

ثم نطق حاسمًا قراره:

– سيصدُر عليك عقاب سيزيف.

أفجعها ما قال...

– هل سُتعاقِب إلهة؟! هل تجرؤ على تحمُّل أحكام الآلهة جراء فعلتك؟

ابتسم نصف ابتسامة:

ـ لقد تخلَّت عنكِ الآلهة، وبطُلَت أحكامهم، أما أحكامي فهي النافذة.

شعرتْ بانكسار واجتاحها كل معاني الخِذلان:

– هل هذا جزاء حُبّي؟ طُردتُ من السماء من أجلك، ليس لى مكان آخر سوى مملكتك.

لم يُجبها، أشاح بوجهه.

لم تكترث، مستحيل أن يُعاقبُها، كان بالأمس حبيبها سوف يندم ويركض إليها. أفاقتْ من خواطرها على وصولها لصحراءٍ مُقفرِة، ما زالتْ تتطلع أن يأتي إليها... لم يأتِ.

جلستْ على صخرة مُحدِّقة للفراغ في صمت... ظهر لها «سيزيف»، قد حكمتْ عليه الآلهة أن يحمل صخرة هائلة ويصعد بها جبل وعر منحدر ليضعها أعلى قمة الجبل فتتدحرج إلى سفح الجبل، فيحملها ويصعد بها من جديد، ما زال يفعل هذا، وعليها أن تحمل الصخرة مثله. ولكن الحاكم بالعقوبة الآن مُجرد بشري.

يحكي لها سيزيف مُعانته، نصحها:

ـ لن تُفِد مقاومتك، استسلمي لعقوبتك، قد حملتُ آثام البشر على عاتقي كما ستحملينها أنتِ الآن، احملى خطيئة حُبكِ وثمن تفريطكِ في قلبك.

سالت دموعها وهي ما زالت تُحدِّق في الفراغ:

ـحبيبي لن يتركني هنا.

أجابها سيزيف مُطرِقًا بأسى:

ـ الأملُ مُميت أكثر من العقوبةِ ذاتها.

لم تجد مفرًا من حمل الصخرة، حملتها بيديها الرقيقتين فجُرِحتْ بشرتها الناعمة، رفعتْ الصخرة على كتفها وهي تتألم، تصعد الجبل بصعوبة، أنفاسها تلهث وقواها تخور، تسقط منها الصخرة قبل أن تصل إلى القمة، تهبط لتحملها من جديد.

جلستْ فى ركن من الظلام بعد أن سقطت الصخرة من فوق كتفها، تنتظر الصباح بفارغ الصبر. الليل طويل لا ينتهي، وكأن العقوبة تتضاعف ليلاً لُتحرَم النوم والراحة.

بدأتْ أنفاسها تتصارع، جِراحها تنزف، ودقَّات قلبها تتصاعد كأنه على وشك التوقف.

غاصتْ بوجدانها فتفجَّرت دموعها كشلالٍ من الألم؛ ألم يكفه غدره! هل يعاقبها؟

مرَّتْ أيام وهي تحمل الصخرة، تبعث له بالرُّسل، تتوسل بدموعها كل ليلة أن يسامحها وينهي عقوبتها.

طفقتْ تنشُدُ الغُفران عن إثمٍ لم ترتكبه! لكنه لم يلِن.

أخيرًا وافق أن تأتي إليه.

ولجتْ مملكته من جديد وهي حزينة مُنهَكة ليست كما ولجتها أول مرة في إباءٍ وبهاء. ولما رأته كأنها وجدتْ الماء بعد ظمأٍ طويل اتجهتْ إليه:

– قد حملتُ الصخرة وجُرِحتُ، حتى قوتي الإلهية خارتْ، لن أتمرد عليك، لن أخرج عن قوانينك.

أجابها في حدة وانتشاء خفي:

–عودي إلى عملك واحملي الصخرة.

تنظر إليه غير مُصدِّقة قسوته، كيف لقلبه المُحِبّ الرقيق أن يقسو على قلبها الذي باتَ ضعيفًا! تبكي:

– لا أستطيع حمل الصخرة مجددًا.

أشار إليها بعد أن لان قلبه بمقدار حبَّة، أو هكذا بدا لها:

– سأعفو عنكِ لكنكِ ستبقين فى الصحراء.

أجابته وهي ترتعش:

– الصحراءُ باردة! لا أقوى على المكوث وحيدة خائفة.

ابتدرها:

– إذًا، هل تعودين إلى حِمل الصخرة؟

صمتتْ مُرتضية عقوبتها.

تمكثُ الليلَ في الصحراء وسط الظلام تتخيّل عُشَّاقها يمرون عليها يرونها كسيرة. ترى إلهة القمر من بعيد تستعتبها: ألم أقُل لكِ «البشر متغيرون»؟

تبكي وهي ترتعد، يبُث حاكم الآلهة الرعد فتنتفض، يعلو بكاؤها، تنادي حبيبها:

– أين أنت؟ ألم تكن حبيبي؟! أنقذني، لا أقوى على الألم.

أشفق عليها حاكم الآلهة:

– ابنتي قد حوَّلكِ العِشقُ من إلهة يرتج لها الكون إلى مسكينة شقيَّة، انتزعي سِهام عِشقه من قلبكِ وإن مزّقتيه.

أجابته بأسى:

– هو المُتحكِّمُ في قلبي وأنفاسي.

– حذَّرتُكِ من تسليم قلبكِ لبشري، هم مُتقلِّبون كتقلُّب الليل والنهار.

– إذًا لِمَ لا يتقلَّب قلبي لأتحرَّر من حُبِّه؟

– لأن قلبكِ غير البشر، أنسيتِ أنكِ إلهة، هي طبيعة البشر؛ يلقون من أيديهم كُل نفيس ويبتغون صعب المنال مهما كان زهيدًا.

– أنقذني، حرِّرني من عِشقه أو اِسقني نكتار الخُلد لأُشفَى من آلامي.

أجابها بالرفض:

– اصنعي نكتار شفائك، أو تحمَّلي شقاءك.

لم ترتضِ ربّة الحُبّ والجمال فى عِليائِها بما يحدث للإلهة التى صنعتها من روحها، قررتْ إعانتها، فهي نصيرة العُشَّاق على الأرض.

تفاجأتْ بها تهبط عليها حاملة في يديها بلسمًا شافيًا، وضعته على جروحها فتلاشتْ. ثم جذبتها من الصحراءِ إلى النهر المُقدَّس لتغسل جسدها وتدلِّكه بالزيت العطري.

أغمضتْ عينيها مُسترخية، تُحاول أن تستشعر بعض الأمان، لكن قلبها لم يهدأ، ما زال جُرحه ينزف.

ألبستها ثوبًا أبيض رَقراق، ثم جذبتها مرة أخرى من يدها، ساعدتها على الدخول إليه خِلسة.

استيقظ على عبيرها، فتح عينيه وانتبه لجمالها وثوبها الفتَّان، ألجمته المفاجأة، اهتزتْ الأحرف على لسانِه:

– كيف أتيتِ وكيف تتمردين؟

تفحَّصها مرة أخرى، ثم نطق بصعوبة:

– كيف تُنهين عقوبتكِ؟

نظرتْ إليه في عطف:

– اشتقتُ إلى وصالك، تُحاكمني السماء والأرض؛ والخطيئة عِشقُك، حتى الآلهة أشفقت وأنتَ لا زلتَ على

قسوتكَ.

تطلَّع إلى جمالها ثم أشاح بنظره:

– لقد هدَّدتِ بحرق مملكتي.

لمستْ بأناملها طرف ذقنه ليلتفت إليها:

– اِبقني قُربكَ، لا تتركني تائهة في الصحراء المُخيفة.

بدتْ هذيلة، شعرت أن قواها تخور، أصبحتْ جائعة مثل البشر:

– لم آكُل منذُ أسابيع.

– لم أمنعكِ من الطعام والشراب.

أجابته بوهن:

– انتظرتُكَ ليالٍ طويلة؛ تمنيتُ أن تُضمِّدَ جراحي.

نظر إليها في صمت ثم نطق:

– ستعودين، ولكن بقوانيني.

طفرتْ دمعة من عينيها.

أخبرها شرطه:

– لن تتدخلي في شؤوني أو بشأن النساء اللواتي أُرافقِهن.

شعرتْ وكأن روحها وخلاياها تموت الواحدة تلو الأخرى، كيف له أن يضع شرطًا على حُبّها بعدما أعطتْ له روحها وتنازلتْ عن مُلكها؟!

أجابته وهي تستسلم من الإعياء وعيناها مغرورقتان بالدموع:

– يكفيني الحُظوة بقُربك.

ستتغاضى عن أخطائه، ستُغمضُ عينيها وهي تعلم أنها لن تأمن عِقاب الآلهة، سيظلّ قلبها بيدٍّ حبيبها، مهما تمرَّدتْ، مهما قذفتْ بنيرانها في كل مكان.

أصبحتْ تجلس بين العامَّة، تحت العرش الذي كانت تجلس فوقه وتنظر من عليائها إليه يومًا، تتبعُها إلهة القمر: «ألم أقل لكِ البشر مُتغيِّرون»

تستمع في مجلسِه إلى حكاياه عن معاركِه التي كان يرويها عليها، لتكتشف أنها خُرافات؛ لم يخُضّ معركة يومًا، ولم يخرج إلى الشمس ليحمِلَ ألوية النصر، ظلَّ دائمًا خلف الستار في الظلام، مع المُتدنّيات من البشر!

تُراقبها ربَّة الحُبّ والجمال بأسى، تهمس إليها:

– اِنهضي! أنتِ إلهة، عودي إلهة من جديد، لن تستسلمي لأحكامِهم، بيدكِ الكون كله، أعيدي استخدام قواكِ، احكُمي الأرض.

صنعتْ كأسًا من بلورات دموعها، استخلصتْ فيه من آلامِها نكتار الخُلد.

نظرتْ إلى إلهة الجمال كأنها تستيقظ من سُبات عِشقها، مومئةً لها من بعيد، تلوح من وسط دموعها نصف ابتسامة، ثم تنظر إلى حبيبها المُسيطر على كيانِها، تنهض في خيلاء، يرى اللمعة ونظرة الإباء في عينيها. اذدردتْ نكتار خُلدها مُحدِّقةً إليه:

- انتظر حُكم الآلهة أيها البشري،
عذابُكَ مُقيم!

مَقبَرةٌ مُخمَلِيَّة

اِنكبَّتْ على حاجياتها تُبعثرُها، أفرغتْ كلُ شيء من مُحتواه، كأنها تُبعثِر قلبها من الداخِل، تُريد أن تُهدِّئ ضَجيج الأفكار التي تنهش روحها، وتُفرِّغ قلبها من الهواجس لتُعيد ضبط وتيرته مُجددًا.

الدُولاب مَفتُوحٌ على مِصراعيه؛ الأدراج، الصناديق، المفارش، الملابس، أدوات الزينة، كل شيء مُبعثَر على الأرض. إلى أن لمَحتْ الصُّندُوق المُخمَلِيّ الأحمر. ثبتتْ ناظريها وكأن الزمن توقَّف، أخذتْ دقات قلبها تتصارع، وجبهتها تتصبب عرقًا، اِغرورقتْ عيناها بغِلالةٍ شفافة، قلبها ومُتنفّسها في ذلك الصُّندُوق!

هي تُدرك أنها بمُجرد لمسه ستنّكأ الجُرح مُجدَّدًا وتزيده ألمًا ولهيبًا. فضلاً عن فَتح الصُّندُوق والتجوُّل في مشاهده وذِكرياته.

ظلَّت سَاكنة والحريق يضرمُ بداخلها مُتأججًا. هل تجد اللذة بغرز السكين داخل قلبها من حينٍ إلى آخر؟ هل يُعيد الإنسان على نفسه مشهد مصرعه يوميًا؟ أم هي من مؤيدي نظرية «اِبكِ حتى يجِفّ الدمع».

تدفَّق دمعها أنهارًا وجَفَّت أوديتها في كلِ الأرض. تفتّر

شفاهها عن بسمة ضاحكة على حالِها فهي تؤيد أيضًا نظرية «لا تبكِ على اللبن المسكوب» هي فقط لا تُريد كتم النِيران فتندلع براكين. فلا تجد ضيرًا إن فتحتْ أبوابًا للذكريات حينًا، علَّها تَخرُج يومًا من عقلها وقلبها بلا رجعة.

أخذتْ نفسًا مُطوَّلًا، ملأتْ رئتيها بالهواء، كأنها على وشك الدُخول إلى مقبرة أثرية. ثم في حركة مُباغتة فتحتْ الغطاء، رفعتْ قلادة؛ أول هدية أهداها لها، وزُجاجة عِطرها المُفضَّل التي تَركتها لأن عبيرها يأخُذها إلى ذِكراه، وصور وكُتب وقُصاصات وأشعار أهداها لها. في الصُورة، تأبَّطتْ ذراعيه في يومٍ شَتويٍّ مُمطر، وتطايرتْ خَصَلات شعرها على وجهه، فتنسَّم شذاها مغمورًا بنشوى العِشق، همس في أُذنها «أُحبُكِ». أدارتْ رأسها إليه، فاِقترب وتذوَّق شفتيها، كانتْ أول قُبلة. تذكُرها كما لو كان معها في اللحظةِ الآنية، تَذكُر أنفاسه ووجيف قلبه؛ النظرة الولهى إلى داخل عينيها.

تتساءل: هل يُعاني الرجال الاِنفصام في شخصياتهم؟! أم هم يتقنون دور العَاشِق؟! أم هذا ما يُخيَّل إليهم؟!

لم تدرِ وهي مُتَّكِئة على سحابة الأحلام ومُتلذِّذة قُربه أنها لم تكُن الوحيدة! يوجد أُخريات. تندُّ عنها ضحكة عندما تذكرتْ أنهم عشرات وربما مِئات، نفس البدايات والنهايات. خرجتْ منها تنهيدة وهي تضحك: « أيا ذا المِئة امرأة!»

هو عاشِق لعِبَ دوره ببراعة حتى أنها أحبتْ دورها المرسوم في فيلمه. هو يُحبّ الحُبّ من أجل الحُبّ. أحبَّ كل امرأة أعطته

قِطعة من روحِها وذاتها، ولم يرتضِ أقل من الروح، حتى إذا ذهب يأخذ الروح معه ويَترُكها حُطامًا، فيشعر بتفوقه.

لكنه أخبرها ذات يوم أنها مُختلفة عن أيَّة امرأة.

تسألُ نفسها عن كُنه هذا الاِختلاف! هل هي الوحيدة التي أحبَّته حدَّ الإيمان التام؟ هل هي الساذجة؟ صدقَّتْ ما تلا على سمعِها. إن كانت الكلِمات تُزيَّف؟ هل النظرات؟ الأحلام؟ الخاطرات؟ أما هي التي توَّهمتْ كالظمأى، أَنَّى له أن يترك لها جُرح كالأخدُود، كهوّة عميقة.

رجل يهوى حفر الأخاديد في كل امرأة، يملؤهن بالدموع ويُبحرُ من شاطئ لآخر.

كان عليها ألا تتمرد، ألا تواجهه، ألا تُحاسبه، أن تُقدِّس أكاذيبه كترانيم تُتلَى على سَمعِها. قد اِرتكبتْ أكبر حماقة؛ حاولتْ أن تُوقفه عن ألعابِه المُفضَّلة، عنَّفته كطفل، كسَّرتْ ألعابه، هدَّدته بالرحيل، وكطفل ثائر في وجه أُمه، جمّع ألعابه المُمزَقة، وذهب يلعب في حديقة الجيران وتركها حتى غُرُوب الشمس تبحث عنه والحسرة تعتصر قلبها.

تضحك من تشبيهاتها «لعبَ في حديقة الجِيران!» وغدًا سيذهب لجارةٍ أُخرى ولن ينضُج الطِفل، ستهتويه كل الألعاب وسيُمزِّقها جميعها.

سيبتعد عن قارتها ويترُك بينهم عِدّة بِلاد. ثم يحنُّ لذلك الصَدر الذي نأَى عنه يومًا، وتِلكَ الشِفاه التي تركها يابسة، رائحة الخُبز الأولى، الفاكهة الناضجة المُحرَّمة، شَربة الماء

بطعم الحُبّ. ستكون هي ملأتْ أخاديدها بالورود وكَحَّلتْ عينيها بالفرح وسَقَتْ شِفاهها مِن نهر الحِكمة وخضَّبتها بحُمرة العِشق.

سيبحث عنها في كل الألعاب. سينتظر أن تُهدهده في أحضانها، أن تُجفِّف دُموع الطِفل الجريح، ستعتلي قلبه، وتدُقّ أنفاسها أنفاسه وتُقبِّله وتَلثمه، وتَدفعه وتَبغُضه، ستَقتُله ألف مرة وتلقيه في مقبَرتِها المُخمَلِيّة.

ستكون هي نسِيَته ونسِيَتْ ترانيمه وألعابه.

أغلقتْ أبواب مقبرتها الأثرية، أخذتْ عطرها المُفضَّل من الصُّندُوق ورتبتْ حاجياتها، ثم رَشَّتْ العِطر في أنحاء الغُرفة وعلى سَريرها. قد ظمأتْ لعينيه، لدورِها في الفيلم الذي بَذلتْ له روحها.

أغمضتْ عَينيها وربتتْ على قَلبِها:

– صَبرًا يا قَلب صَبرًا، فمِن السُمِّ التِّرياق.

الذبيحة

هيئته كهيئة الأعيان مالئي البطون، يمشي في الطرقات مُبتسمًا مُتباهيًا للمُحيِّين، يرتاد المساجد مُتَّشِحًا ثوب الفضيلة، يستمع متدبرًا لصراخ خطيب المسجد ونشيجه المُفتعل وهو يتشدَّق بالأحاديث والروايات الباطلة عن السَّلف وعن رسول الله. يرى النساء يُقهرن أمامه على منابر الله إعلاءً للمفاهيم الذكورية، فيومئ برأسه تقديرًا وعِرفانًا.

أنهى صلاة الجمعة، توجَّه إلى منزله، خلع ملابسه ووضع المِسْبحة جانبًا. فتح الثلاجة، تناول زجاجة البيرة، جرعها وهو يُشعِل لفافة الحشيش، ثم هاتف بعض رفيقاته للقاء. لديه الوقت اليوم ليقضي بعض المتعة مع إحداهن. قد جمع مالًا وفيرًا من الرِشوة ليهنأ بتلك اللحظات، آملًا أن يعوِّض حرمان الأيام، ويرد للدهر صفعاته.

ينتهي، ثم يتكوم في غرفته باكيًا من الأقدار، قانطًا؛ حاقدًا؛ ماقتًا، قلبه حالك؛ موارٍ.

يغترف من ماء النهر فيتحول في يده لماء مالح لا يروي. يقطف ثمرة الفاكهة فلا تسمِنه من جوع. يعتمد كل الطرق المشروعة وغير المشروعةِ لإسكات صوت جوعه الروحي فلا تُجدي.

تستعر روحه فيبدأ في اِرتكاب الجرائم الواحدة تلو الأخرى؛ يسرق المحبَّة لوعةً، يقتل النفوس قهرًا، يُفسد في الأرض.

ثم ضاقت عليه الأرض بما رحبت؛ هرع إلى الصحراء، يجري هنا وهناك؛ علَّه يجد الراحة لعذاباته. نظر إلى السماء رافعًا يديه مستجديًا قوة خارقة لإنقاذه:

– أيها الإله مالك السموات، لِمَ لا تجيبني؟ تركتني مع هؤلاء البشر الجاحدين، إن أحرقتهم جميعًا سأبني لك صومعة، وأكون من المُتصدِّقين. أيها الإله لدي المال ولا أكتفي، أريد المزيد. لِمَ لا تهب لي العطايا؟ لِمَ لا تُنزِل مائدة من السماء عليها الكنوز والصبايا الحِسان؟! أيها الإله خذ من أموال الناس واغدق عليَّ، أريد النساء أن يخضعن لي جميعهن، أريد البشر معذبين، أن تزول خيراتهم وأن تؤول إليَّ، وسأُصلِّي لك كل يوم.

سمعه راعٍ بقطيعٍ من الأغنام:

– لقد وهبك الله الكثير، ألا تكون من الشاكرين؟

اِلتفتَ للراعي ساخِطًا:

– اصمت. أنت لا تدري بؤسي ومَأْساتي.

اِقترح عليه الراعي بِابتسامة ماكرة أن يبتاع بعضًا من غنمه، ليُقدِّمهم قُربانًا للإلَهَهُ؛ علَّه يُجيب مطلبه ويُكفِّر عن ذنوبهِ.

راقت له الفكرة فاِشترى القطيع كله، أخذ يُصلّي حتى الصباح. ثم ذُبِحَتْ الأغنام وطَعِمَ الفُقراء. سألهم بأن يدعوا

الإله بأن يقضي حاجته. رفعوا أيديهم إلى السماء مبتهلين. لا يعلمون أنهم يدعون على حالهم ويُقرّون بالموافقة على عذاباتهم.

ظلَّ يصلي لإلهه كل يوم، مُطالبًا بحرق البشر والنيل من خيراتهم والحصول على نسائهم.

لم يستجب الله له، ولم تُنَّزل مائدة من السماء، فما كان له إلا أن لَجأ لقوة أخرى؛ قوة مظلمة؛ كيدها ضعيف.

ثم في لحظة نادرة من تاريخ الإنسانية، عُلِّقَت الصلوات وأُغلِقَت المساجد... فبات حزينًا!

رقصة الحياة

تنظر إلى المرآة الهائلة في الاستوديو مُرتدية زيّ الرقص، على وجهها مكياج صارخ، دأبتْ على اختيار مجموعة من أزياء الرقص التي تُبرِز مفاتنها، هذا ذو اللون اللامع وذاك القصير والآخر مُبهرَج. اقتنتْ الألوان ما بين الذهبي والوردي والسماوي؛ ألوان الحياة والأنوثة. أكان يجول في خاطرها أن تنتصر على انكسار قلبها بالرقص؟!

تفحَّصتْ مفاتنها، كيف لرجل أن يفعل ذلك بها إلا لو كان لديه عِلَّة في عقله أو رجولته. حاولتْ أن تتمايل بقدَّها لترى شكل زيها، أعجبها أن ما يميزه هو انحناءاتها الأُنثوية.

بدأتْ الرقص بحركات قوية، رغم أن المُدرِبة أخبرتهن أن يتمايلن بهدوء في بدء الرقصة، لكنها ليست من المُقدِمين على الخُطى البسيطة؛ هي كجموح الحياة تريد أن تُلقي بنفسها في النهر وتسبح بعيدًا ليأخذها تيار جارف، هكذا كانت مشاعرها نحوه؛ لم تُميز الوهم من الحقيقة.

بدأتْ دموعها تنساب، مما دفعها إلى الهروب والاِندماج في الرقص، سترقُص وتهرب، لكنها فشلتْ؛ أخذ جسدها ينشج ويرتعش ارتعاشات مُمتزِجة مع رعشات الرقص. شعرتْ بتوهُّج، لم تدرِ أهو نتيجة الرقص أم لهيب جُرح قلبها.

لم تتوقف عن الرقص أيامًا، وكذلك دموعها. كانت تشعر أنها تصعد سُلمًا عاليًا من الألم لا ينتهي. كانت تراه مع كل رقصة، رقصتْ في تحدٍّ أمام عينيه الغادرتين: « قد وهبتُ لك نعيم الجنة وأهدرته أنت بحماقتك »

بدأتْ تنتقي أزياء الرقص وتتفنن في الأكثر إغواءً، ومع كل رقصة بدأتْ دموعها تنحسر وطاقتها الأنثوية تتوهج. وشعرها يتطاير مُتحدّيًا. كان خلخالها يرنُّ فوق كعبها العالي. كانت كلماتها رقصًا وأهدابها فراشات وأصابعها عزفًا، وقلبها في قوة طائر يجوب السماء. شعرتْ أنها ملكة لعدة ممالك، تعاظم لديها حُبها لذاتها، وأخيرًا...

ضُمِدَ جُرحها.

بدأت صورته تتلاشى، حتى أصبحت تُراب كالعدم

كانت تخبره عندما غدرها:

– هل ماتت ضحكتي وذَبُلتْ بهجة عيني؟

ضحكتها أشرقت شموسًا، لديها قوة الآن أن تحوِّله لفأرٍ هارب. تحوَّل ألبوم صور حُبَّها في ذهنها إلى حديقة حيوان. ضحكتْ، يتراءى إليها أخر مشهد وهو يهرب، وينتفض كالقنفذ عند رؤيتها، حتى أن كلماته المُزيَّفة لم تُسعفه.

جوهر الحُبّ هو «رَجُل»

كلمة رَجُل هي الإجابة لجميع الاسئلة.

هل ستنضُب مشاعرها على فأر؟!

تخيلته يقع في مصيدة تُنهي أعماله.

كم آلمها المشهد ونزفتْ عيناها، الآن يضحكُ قلبها، من قال إن الجروح تترك ندوبًا؛ بل تتحول لزهور.

قررتْ هذه المرة صُنع أزياءها الراقصة بنفسها، فتلك الروح لن يتواءَم معها إلا زيّ أسطوري.

انتقتْ قماشًا حريريًّا ورديّ اللون، صمَّمتْ ثوبًا ذا فتحة طويلة من الجانب، رصَّعته عند فتحة الصدر والجانبين باللآلئ الحُرَّة، وبعض من الأحجار الأماسيت. وضعتْ على رقبتها سلسلة ذات دلاية ماسية.

نظرتْ لحالها، شعرت أنها إمبراطورة يتضاءل العالم تحت قدميها.

جُرح قلبها أصبح مثارًا لسخريتها. ضُمِدَ جُرحها وتبدل إلى مصابيح، امتد الضياء من قلبها إلى عينيها، غمرتْ مشاعرها العالم. ستظلّ تُحِبّ وتفرح طالما قلبها ينبُض...

اتسعتْ ضحكتها وهي تنظر للمرآة:

– سأكون أنا الراقصة فوق بُساط العالم.

نِصف رَجُل

لم تجد لها حبيبًا في هذه الليلة سوى زجاجة الخمر، ملأتْ الكأس واِحتستْه كأنها تُقبِّله كبديلٍ عن حبيبها.

اِستلقتْ على فِراشها والكأس فى يدها والحرمان يعتصر قلبها. تشتاق قُربه، ما زالتْ تُحِبه رغم اِبتعاده الذي أضحى مُتزايدًا.

تذكُر أول زواجهما محاذير الجميع بأنها كزوجة ثانية سيكون عليها الاِنتظار ليالٍ كثيرة.

تصلها رسالة على هاتفها:

– آسف حبيبتى، اِنشغلتُ كثيرًا، لن آتِ الليلة.

تبتسم في اِنكسار، تنهض من فراشها وتضع الشموع العطرية في الحمام. تحاول الاسترخاء، تغمضُ عينيها. يأتيها نفس الخاطر؛ لاتدرِ ماذا تفعل بحُبّها، لم يكن بِاختيارها، روحها تآلفت مع روحه. تتساءل: هل نملكُ أرواحنا لنُملي عليها قرارتنا؟!

هي تعلم أنها أصبحتْ كالعشيقة بعقد زواج رسميٍّ مُعلَن. النصف علاقة التي تحياها معه تُشعرُها أحيانًا بالخزي، لكنَ الخزي في سبيل حُبه هو الطُهر بعينيه. تراه أعظم الرجال، وحُبّها له هو قُربان عظمته.

هكذا اِختارتْ « ليال » حياتها وارتضتْ بها.

لفَّتْ شرشفًا حول جسدها، ذهبتْ لحجرتها، فتحتْ دولاب ملابسها، لفَتَ نظرها فستانًا حريريًّا أسود، يغويه اللون الأسود عليها. تضع أحمر شفاه وبعض العطر على رسغها ورقبتها. تتأمل جسدها الفتَّان فى المرآه، مُتسائلة، ما الذي يدفع رجل لتركها ليالٍ طويلة هكذا، هل حُبَّها لا يكفيه!

رفعتْ كأس الخمر مرة أخرى، أصبح هو ماؤها وشفاؤها فى وحدتها، تحدِّق إلى زجاجة الخمر كأنما ترى الحقيقة من خلال زجاجها الشفاف! تنسابُ دمعتان من عينيها، أدركتْ أنها بالنسبةِ إليه ليس إلا مُستراح يُلقي عليه أعباءه، وهي إلى من تُلقي بأعبائها! هي التي كان الرجال يتسابقون على رضائها. لم يترك حيلة إلا فعلها لتقع في حُبّه. الآن أضحى يأتي إلى المنزل ولا يبيت! لماذا إذًا لا يعدل، هل هذه الجنَّة والليالي الهانية التي وعدها بها! لم تقوَ على الوحدة هاتفته:

– اِشتقتُ إليك، أريدك الليلة.

– ولكن يا ليال، أخبرتكِ أني مُنشغِل.

– أتنشغل عن حبيبتك؟

صمتَ.

تابعتْ بصوتٍ واهن:

– آدم، أريدك في فراشي، أشعر بالوحدة والبرد، آدد....

يُغالبها البُكاء.

– ماذا فعلتَ بي يا آدم، وماذا فعلتُ أنا لأستحق كل الوحدة والعذاب؟!

أجابها بفارغ الصبر:

– حبيبتي، أنا لم أعذِّبك ولم أكذب، تعلمين ظروف عملي وأعباء حياتي، وأسرتي، فهولاء لن أتخلَ عنهم أيضًا.

كان وقع كلماته قاسيًا.

– وألستُ بعائلتك؟

– ليال، أنا لم أُحب امرأة سواكِ، ولكنها أعباء الحياة.

– نعم أنت مُحق يا آدم، هي أعباء الحياة، وكأني محظية ولستُ بزوجة! لذا سوف آتى برجل غيرك في فراشي الليلة.

– أجُننتي؟! ماذا تقولين؟!

لم يتمالك نفسه، هل ألقتْ في وجهه هذا التهديد بفعل الخمر؟ أما أنها ستُقدِم على فعل أيّ شيء لتُحزنه؟

أخذ مفاتيحه وأدارَ سيارته مُتجهًا لمنزلهما، قد خرجتْ كل الأمور عن سيطرته، تزوجها بعد أن وجد فيها الحُبّ الغائب بعد سنوات، لكنه لا يقوى الآن على تحمُّل كل تلك الأعباء، زوجته الأولى؛ أبناءه؛ العمل؛ هي.

يُقِرّ بأن ليال أحبته، وحاربت الجميع، وارتضت برجل مُستهلَك يحمل كل أعباء الحياة على عاتقه، لكنها عندما تشرب الخمر يسوء سلوكها، هذا الخمر الذي اتخذته عادةً في غيابه... سوف يُرضيها، سيأتي لها بهدية ويصالحها.

فتح باب المنزل حاملًا بيديه هدية وورود، لكنه تسمَّر فى مكانه من هول الصدمة؛ صدمه وجود رجل في المنزل جالسًا على الأريكة!

لم يتصور أن ليال جادة فى تهديدها. كان مفزوعًا وكأن صخرة سقطت فوق رأسه...

نظر لهما، ثم نظر لزجاجة «الويسكي» التي أمامهما على المنضدة مع الكؤوس.

اِستقبلته في مرح:

– أهلًا آدم، أقدِّم لك صديقي سامر، نحن أصدقاء منذ سنوات، وقد أتى بالأمس من لندن، ولم يفته أن يزورني... سامر، أُقدِّم لكَ زوجي آدد....

قاطعها غاضبًا مخذولًا:

– كما توقعتُ، تشربين الخمر ولكن لم أتوقع هذا الـ.....

أدرك سامر أن وجوده ليس له معنى، فنهض واِنصرف، مُحدِثًا دويًّا وهو يغلق باب المنزل.

نظرتْ له ليال في حِدة:

– نعم أشربُ الخمر، هو أفضل منك؛ هو الذي يهدِّئ روعي، هو حبيبي وصديقي الذي لم يتخلَ عني.

سألها بأسى:

– وأنا متى تخليتُ عنكِ؟

ندَّتْ منها ضحكة عالية:

– يكفيني ردودك القاسية، تُعامِلني كقطة بائسة تتمسح بقدميك، هل أصبحتُ أتسول الحُبّ منك الآن؟

سألتْه بِابتسامة ساخرة:

– هل هالَكَ منظر رجل غريب مع زوجتك؟ هل خشيتَ أن تحيا مع نصف اِمرأة تتقاسمك مع رجل آخر مثلما أتقاسمك أنا مع اِمرأةٍ أخرى؟

صمتتْ لترى وقع كلامها، رأته مُمتقعًا مشدوهًا، ثم أكملتْ عبارتها حاسمة قرارها بجمود:

– حسنًا يا آدم، أنا لا أرغب بكَ بعد الآن.

اِقترب منها حاول أن يحتضنها فاِبتعدتْ.

– ليال أنتِ غير واعية لتصرفك، سأغادر الآن حتى تهدئي وتستريحي ونتحدث فيما بعد صباحًا.

– نعم، هذا ما تجيده؛ أن تتركني فى أكثر لحظات ضعفي واِحتياجي، أنا لا أريدك يا آدم، اتركني ولكن للأبد.

أجهش صوتها بالبكاء.

أجابها بصوتٍ أكثرَ وهنًا منها:

– كما ترغبين يا ليال، لكن اعلمي أن كل ما حدث خارج عن إرادتي؛ أشعر بالعجز، أنتِ مُحِقّة أنا لم أفِ بِعهدي.

اِلتفتتْ إليه وقد صنعت دموعها جداول على وجهها:

– لكني بذلتُ روحي فى سبيلك، تحديتُ الجميع، جعلتُ من قلبي قلعة تحتمي بها، وقفتُ بقوة مدافعةً عنك.

ينظر فى عينيها بحزن وشوق فى آنٍ:

– أحبكِ وأنتِ تعلمين.

– لا أعلم، لكني أعاني كثيرًا، أردتُ أن أكون كالشمس، تُذيب الجليد المتراكم على روحك. أن تنسى الماضي ولا تهاب المستقبل، أن تترك قلبك لي، إن تجعلني أجد السبيل إليه، وإلا لن تكفِ أنهار الخمر لإنهاء حُبكَ في قلبي، فأنا مخمورةٌ بكَ أكثر من أيّ شيءٍ مُسكِر.

اِقتربَ، طبع قُبلة على رأسها. وضعتْ أناملها على وجهه برفق هامسة:

– أُحبكَ، لكنكَ لم تدرك مذاق خمرتي بعد، ولن تدركها، سأشتاقك كثيرًا... لكنني لن أرتضي بنِصف رَجُل.

ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا

أتتْ إليه بكل شعورٍ للفقد داخلها، غير آبهة لخطيئتها.

لم يتوقع مجيئها، نهض من خلف مكتبه مُنتفِضًا،
– كم أنكِ امرأة مُتبجِّحة، كيف تجرؤين على المجيء؟ ألا تخشين قتلك؟

نطق رامي في غضبٍ محموم.

نظرتْ إليه في انهزام:
– لا أخاف، فبِاستطاعتك فعلها مرةً ثانية، لا أدري أني تزوجتُ من قاتل.

أجابها بنظرات احتقار ممتزجة بالخِذلان:
– لا أدري أني تزوجتُ من خائنة لا تعرف للشرف معنى.

ثم أضاف شامتًا:
– من حُسن الحظ أن عشيقك يسكن في منطقة نائية ولا وجود لكاميرات المراقبة، لكن بِاستطاعتي تحويل القضية إلى جريمة شرف.

زفرتْ أنفاسها:
– ستخسر، وتُعاقَب بالحبس، ليس لديكَ أدلة.

ضحك عاليًا:
– بل لديّ الكثير.

تنهدتْ مرة أخرى:

– رامي، فلتتروى ونناقش الأمر؛ قد أخذتَ انتقامك، أنا والدة طفلتك ولن يكون ذلك في مصلحة الجميع.

نظر إليها شزرًا مُتهكِّمًا:

– وهل تهتمين لأمر طفلتك؟ وما الذي في مصلحة الجميع؟ أن تجتمعي بعشيقك!

أجابته مُطرِقة في أسى:

– فارس بين الحياة والموت، كما أني لم أخُنك، طلبتُ منك الطلاق ولم أجمع بينك وبين رجل آخر، أخطأنا مرتين فقط ثم امتنع فارس عن.....

قاطعها رامي ضاحكًا وباكيًا بطريقة هيستيرية:

– ماذا أيتها البتول؟ أخطأتم مرتين فقط؟! لم أرَ فاجرة تعترف بفعلتها بكل فخر.

نظرتْ إليه في تحدٍّ:

– أعتقد أنها المرة الأولى التي بدأتَ تفهمني.

قبض رامي على كفه محاولًا السيطرة على حاله:

– إذًا سأخبركِ أيتها البتول الشجاعة ما تجهلينه عن عشيقك.

صمتَ وهو ينظر لحدقات عينيها التي بدأتْ في الاتساع والترقُّب.

قاطعتْه بصوتٍ مُتقلقِل:

– أنا أعلم كل شيء عنه، لا تحاول التلاعب بي.

لم يأبه لردَّها، فتح درج مكتبه وأخرج ملفًا...

– كنتُ قد جمعتُ معلومات عن عشيقك، هذا الملف يحوي ملابسات قضية لفارس بأمريكا، سُجِنَ على إثرها ستة أشهر بسبب محاولته الاِعتداء على زوجته الأمريكية بعد أن خانته.

حملقتْ دنيا في الملف ثم صاحتْ:

– اِفتراء! هذا من تلفيقك.

نظر إليها مُنتشيًا:

–أنتِ بالنسبة له مثل زوجته الخائنة.

أغمضتْ عينيها بصعوبة. تأتيها مشاهد ما قبل الخطيئة..

•••

يعطيها باقة الورود، يخبِرُها:

– الورود تذبل أمام جمالك.

تضحك. يُمازِحها:

– لم أرَ شمسًا تُشرقُ في الليل.

تخبره بدعابة:

– أنت بارعٌ في الكلمات.

ينظر مُستغرِقًا في عينيها، تطرق خجلًا وأهدابها تفترش مساحة أسفل عينيها كأجنحة الفراشات.

تُفتَن بغَزَله وإتقانه للمفاجآت، لكن شيئ يقف حائلًا، لا تدري هل ذكاؤها الذي يرفض الإذعان لأيَّ رجل، أم ذاته الذكورية التي يُخبِّئها إلى أن يحظى بالصيد الثمين؟

بالنسبة إليها، الزواج من شرقي أخطر من قتل النفس.

يسألها:

– متى أحظى بضحكتك يا دنيا؟

تضحك، تُجيبه بعينين صامتتين:

– لا زلتُ لا أستطيع تسليم نياط قلبي.

حياةٌ صارمة عاشتْها؛ كل شيء غير مُباح؛ تفاني عظيم من الأم إلى الأب بلا حد؛ وإن كان على حساب الأبناء، وأب لا يرضى عن شيء، كل ما لا ينال إعجابه فهو بسبب تقصير الأم، « النساء لا يصلحن لشيء، هم سبب الفتنةِ والدمار، عقولهن قاصرة» أما الأم فلم تسعَ لإرضاء الأب فحسب، بل الأقرباء والجيران، وإن كان على حساب الأبناء، وخاصةً الإناث؛ يجب أن يتحدثن ويسلكن وِفقًا للقواعد.

« لا! لن أعش مع رجل حسب القواعد»

ينظر إليها في حنو، تلين، تُفكِّر في منحه فرصة؛ رِفقته مُحبَّبة، لا سيما وعوده بأنه سيكون رفيق درب طموحها وسيملأ قلبها بهجة.

كان زفافهما أسطوريًّا، لم يُصدِّق أنه ظفر بها.

•••

تجلس على الأريكة، تنظُر للتلفاز كأنها لا تنظر، أمامها ابنتها ذات الأربعة أعوام تلهو بألعابها. تحسَّس رامي عضلات ذراعيه المفتولتين بفخر، ثم اقترب يُقبِّل وجنتها هامسًا:

– اشتقتُ إليكِ.

تذكرتْ ليلة أمس، أجابته وهي لا زالتْ تنظر إلى التلفاز:

– لكني لم أشتاق.

كان الشرخ الأول في زواجهما، شتان بين الشعورين؛ بينه وبين حبيبها؛ رأته بعد زواجها بسنوات في تجمُّع مع الأصدقاء. كان رجلًا من ذلك الطراز العذب الذي يتحدث بكلماتٍ مُنَّمقة. لم تستطع رفع ناظريها عنه، كأن عينيه مغناطيس، تنفذ من خلالهما داخل روحه وينفذ إليها، كان لمُلامسة يديه بيدها أثناء المصافحة أثرٌ عجيب، كأن في ملامستها الأمان لروحها والاِحتماء من المجهول. أحسّتْ بحس المرأة أنه يبادلها الشعور.

لم تدرِ كيف استطاع أن يرى الهزيمة داخلها. رأتْ فيه اختلافًا عن زوجها؛ فارس يدافع عن المرأة؛ يرى لها مُطلق الحُرِّية في عيش سعادتها وتحقيق رغباتها وطموحاتها بلا حد.

تُفكِّر في حياتها مع زوجها الذي لم يُقصِّر في شيء؛ لم يُسِيء معاملتها؛ يأخذها للسفريات، يتقن المفاجآت، غير أنه لا يعرف كيف يعامل أنثى!

لا تدري أين ذهبت نظراته الحانية ووعوده التي كانت قبل الزواج. كلُ شيء تفعله دنيا الآن يجب أن يتبع التقاليد، مما

أفضى إلى الحرمان الروحي داخلها الذي أضحى يملأه فارس. أشياء مفقودة تبحث عنها،

«أبدأتِ تجدين ضالتك معه؟»

حاولتْ أن تبعد ذلك الخاطر عنها، لكنها لم تستطع رفض طلبه عندما عرضه عليها:

– هل تقبلين أن تُري فتنتكِ للشمس؟

– كيف؟

على الشاطئ، لم تُفكِّر أو تتروى فيما هي مُقدِمة عليه، هي كالمسحورة، كيف يكون في أجاج البحر الارتواء لظمأها، رأته الفارس الذي سيحملها عاشقة مُتوَّجة، ضجيج برأسها، ماذا تفعل هل تدمر حياتها المستقرة؟

وجدتْ خطواتها تأخذها عائدة إلى الشاليه دونه لتأخذ حقيبتها وتعود، لحقها، أمسك ذراعها:

– هل أنتِ بخير؟

– لا أدري.

هربتْ دمعة من عينها، لم يشعر بنفسه إلا وهو يحتضنها.

كان جسدها ينتفض، حاول تهدئة روعها بلمساته الحانية على أجزاء جسدها، لمس بأصابعه شفاهها المرتعشة، ثم تحولتْ اللمسات إلى قُبلات، أصبحت الرعشة في جسدها ليست رعشة بكاء وإنما احتياج، رغبة كالظامئة تريد أن ترتوي.

همس في أذنها:

– على مهل، اتركي روحكِ ولا تغمضي عينيكِ، سنذهب بعيدًا، اسمعي صوت أنفاسك، تذوقي الحُبّ، اشعري بكل لمسة، كلمة، تأملي داخل أحضاني، لا تتركي عينيّ.

أهذا هو الحُب الروحي الذي قرأتْ عنه؟ أهذا ما كانتْ تظمأ إليه؟ الشعور، ليست كل اللمسات شعورًا، ولا كل الماء يروي، ولا كل الطعام يُسمِن؛ ولا الكلمات تُسمَع.

لا تدري كم مرَّ من الوقت، كأنها تحيا من جديد، غفلتْ عن حياتها. ظلَّتْ تُفكِّر في اللحظات التي عاشتها مع حبيبها كأنهما كانا خارج حدود الكون، ترغبه مرة أخرى، قد ذاقتْ طعم الحُبّ ولن تستطع الاستغناء عنه، هو مُنقِذها، لا تشعر بأدنى ذنب مما جرى بينهما، فلا حاجة لها بدخول الجنَّة، هو جنَّتها على الأرض. لابد أن تحصل على الطلاق!

الحُب تفوح رائحته وتنتشر كإنتشار حبوب اللقاح في موسم الربيع حتى نمى إلى زوجها، فتصرفاتها جميعها غريبة. أخذ يبحث في غرفتها داخل أغراضها وملابسها، حتمًا سيجد شيء. وقع بصره على ملابس نوم وسباحة لم يرها من قبل، لم يكن من الصعب مراقبتها.

•••

وجدتْ حبيبها بإنتظارها أمام منزله ليريها عِشهما الجديد، ينظر إليها بحنو، ما زال قلبها يخفِق فرحًا عند رؤيته، عيناه

تُسكِن اضطراب روحها، تمنَّتْ أن تحيا معه وتتنفس حُبّه ما بقيَ من عمرها.

أفاقتْ من أفكارها على صوت دويّ لطلق ناري صمَّ أذنيها؛ صوت عدة طلاقات طائشة، لتجده مغشيًا على الأرض مُدرجًا في دمائهِ، تركض نحوه غيرمُدركة لما يحدث.

•••

كانت لا تزال في مكتب رامي، وعقلها مسافر للذكريات المُخيفة، اقترب منها، فابتعدتْ خطوة للوراء، سألها بصوت متحشرج ودموع متحجرة:

-هل أخطأتُ يومًا في حقك؟

صمتت.

-هل أهنتُكِ؟

اِنتفضتْ بصوتٍ خافت مُطرقة:

-أبدًا.

علتْ نبرة صوته:

- هل أهملتُكِ؟

نظرتْ له خجلة كأنها تريد الاعتذار.

صاح ضاربًا بكفه على صدره:

- كان لكِ أن تناقشيني، كنتُ على استعداد لفعل أي شيء لإنقاذ زواجنا.

ثم وهن صوته:

– أحببتُكِ، سعيتُ لإسعادكِ وابنتنا.

– ولكن يا رامي يوجد أشياء لا تتغير ولا تتبدل؛ إنه الشعور.

نظر لها مطعونًا بالخِذلان:

– هل استحق ذلك الشعور الإلقاء بي وبابنتك، وبأن تبخسين قدرك؟

بكتْ، لا تعرف هل هي دموع الندم أم صدمتها أم انفطار قلبها على ابنتها؟ في قرارة نفسها، تُقِرّ بأن ذلك الشعور استحق كل شيء! حتى التضحية بروحها.

أشاح بوجهه عنها:

– لا حاجة لي وابنتي بامرأة مثلك.

•••

قبضتْ الملف بيدها متوجهة إلى المشفى، جلستْ بجانب حبيبها الغائب عن الوعي مُمسكة بيده.

– فارس حبيبي أتسمعني؟ أعرفُ ما حدث، أعرفُ جُرحك الغائر ولكني أحببتُك.

بدأتْ تسقط دموعها على كفِّه...

– يا أغلى رجل على قلبي، بفضلك تذوَّقتُ معنى الحُبَّ، خَبرتُ ماهية الشعور، الحُبّ هو أن تشعر كل خلية في جسدك بمن تُحِبّ، حتى روحك تذهب إليه وتُلاقيه حيثما يكن. ستظلّ

روحي معك سأحارب من أجل نفسي ولن أستسلم، أحبك يا فارس، كنتُ أعلم أني سألقاك قبل لُقياك، كُنتُ أشعر بك يا حبيبي دون أن تتحدث.

ضغطَ على يدها ضغطة خفيفة...

أشرقتْ ابتسامتها، كم اِشتاقتْ للمسة يده...

ثم صفَّر الجهاز المتصل بنبض قلبه!

هزيمة صُعلوك

لم يستطع التغلُب على الطفل المهزوم داخله، يُلاحقه في تفاصيل يومه. في الصف الاِبتدائي تنمَّر عليه زميله ضخم الجسم في المدرسة، كان يسخر من جسده الضئيل الضعيف، يُخبره أن ملامح وجهه تُشبِه شخصيات أفلام الكرتون، فبات سُخرية تلاميذ الفصل يوميًا، فلا يخلو يومه من بعض الصفعات أو الركلات أو تمزيق كتبه، كان يبكي في صمت دون دمع، لم يجرؤ على شِكايتهم.

ينتهي من يومه المدرسيّ العصيب، حتى يستقبله والداه فتبدأ ليلة عصيبة من نوعٍ آخر:

«هل انتهيتَ من دروسك؟ هل حصلتَ على الدرجة النهائية؟ هل رتَّبتَ غُرفتك؟ كيف نقصتَ درجة في اختبار العلوم؟ أنت مُعاقب لا تِلفاز ولا خروج ولا حلوى».

حمَلَ على عاتقيهِ مهمة إرضاء الجميع؛ عليه تحسين صورته لينال الاستحسان حتى لو بكلمة أو نظرة. لا يهم ما يرغب هو به، أصبح يرى نفسه لا شيء، فحياته وأنفاسه مرهونة بإرضاء الآخرين.

سيُشارِك في جميع النشاطات المدرسية حتى ينال استحسان مُدرِّسيه، سيُفرِّق حلواه على زملائه حتى يرضوا عنه ويتجنب ركلهم.

كَبُر وكَبُرت معه تلك المهّمة المحمولة على عاتقيه، إن لم ينلْ الاستحسان يومًا فسيكون ذلك بمثابة هزيمة وفشل بالنسبةِ إليه. يجب أن يتفوق في الكلية وينال استحسان أساتذته، ويُشارك في نشاطات اتحاد الطلاب سواء النشاطات العلمية أو الفنية لا بأس، سيكون مُتفوِّقًا في كافة المجالات، يجب أن يلفت الأنظار.

رأى أقرانه يعيشون قصص الحُبّ التي لم يحظَ هو بها، صوت داخله يتهكَّم عليه: «من هي الفتاة التي ستُعجَب بشخص غير وسيم قصير مُكتنز؟!».

حرص على شراء الكُتب التي تتناول مواضيع تطوير الذات: «كيف تكون طموحًا»، «كيف تجذب النساء»، «كيف تكون مُقنِعًا»، «كيف تُسيطر».

كان بعض أقرانه من الشباب يُغرِّرون بالفتيات ثم يتركونهن؛ قلب فتاة جميلة كسير تركها شاب وسيم، لن تُمانع أن يُضمِّد جُرحها فتى قبيح. كان ذلك يُشعِره بالضآلة أكثر، وكأنه يُلَملِم فُتات أقرانه، فكان يتعهَّد أمام نفسه أن يكسر قلوب أولئك الفتيات كسرًا هائلًا مُضاعفًا ويتفوَّق على أقرانه حتى ولو عن طريق إيذاء الآخرين.

وكي يستمتع بمخططه كان عليه أن يجتهد أكثر في دراسته ثم عمله، يعلم أنه دفع أثمان فادحة ليرتقي لأعلى المناصب بالطرق غير المشروعة تارةً وبإذلال النفس تارةً أُخرى.

إن كان شكل الجسم وملامح الوجه لن يستطع تبديلهما،

فالكاريزما لا زالت في يديه؛ سيبحث ويستذكر كُتب تنمية الذات، حتى يكون بالشكل المثالي والمرغوب. سيتقمَّص كل الصفات الحسنة حتى وإن لم يكن لديه أيًّا منها.

قد سأم لُعبة لملمة فُتات النساء من أقرانه، هو يريد الآن فتيات طازجات بريئات، سيُمارِس عليهن لعبة التحطيم ولكن بشكل أقوى.

في كل لُعبة سيتذكر قسوة والديه ورِفاق الطفولة، والفتيات اللاتي رغب بهن ولم يبادلنه الشعور. وتلك الفتاة الفتَّانة التي أهانته أمام الجميع بسبب ملاحقته لها. لن يترك حتى الحيوانات الضالة بالطريق؛ سيدعسهم بسيارته ويشعر بالنشوة. سيُوقِع الفِتنات بين زملائه في العمل وحتى الجيران؛ رؤية النيران تُبرِّد لهيب قلبه.

سيظلّ يحمل على عاتقيه مهمة إرضاء ذوي النفوذ، وتدمير حياة الآخرين غير المحوريين في حياته. سيتزوج من امراة تُعينهُ على تلك المهمة، سينجب أطفالًا، سيُحاسبهم الحساب اليومي والأبدي: «هل استذكرتم دروسكم؟ لِمَ نقصتم درجة في الامتحان؟ أقرانكم أفضل منكم، أنتم مُعاقَبون ومَحرُومُون».

سيكون كالصُّعلوك بلا مأوى، ولا شعور، ولا أمان. لن يعرف الله ولا الحُبّ ولا الوطن. يعلمُ خطَّ نهايته عندما يجتمِع عليه كل هؤلاء الضحايا من بينهم القطط والكلاب الضالة. سيصرُخ بأنه ضَّحيَة، سيأتيه صوتٌ جهوريّ من

الفراغ:

(ألم تكن في كامل وعيك حين ارتكبت خطاياك؟
ألم تأتِك قراطيس الحُبّ والإنسانية فألقيْتَها؟
ألم تُؤْثِر كلام الشيطان على كلام الحق؟
تمرَّدتَ على الأقدار
لستَ ضَّحيَّة...
أنت خُيِّرتَ فاخترت).

درويشـة

قررتْ أن تنوء بحياتها بعيدًا عن البشر، ستنعزل وسط الطبيعة لمدة ثلاثة أسابيع على نهج «أوشو» والفلاسفة الصوفيين، ستمارس السُّكون والصمت.

(فِي السُّكونِ تُولَدُ الذَّات
وتُشفَى الجِراح
ويَسْتكِينُ القَلب)

لكن هل بالإمكان أن يُضمَّد الجرح الذي لا يندمل؟

جمعتْ حاجيتها وارتدتْ ملابس فضفاضة، وصلتْ مكانًا معزولاً أمام البحر؛ «شاليه» لصديقتها قلَّما تذهب إليه هي وعائلتها بسبب نَأيه في قرية لم يكتمل إنشاؤها. ترى أن صديقتها لا تعلم قيمة الكنز الذي تمتلكه وهو السُّكون، بينما كل ما تريده لنفسها هذا الهدوء بعيدًا عن ضجيج البشر، وكأن الجُرح الذي بداخلها يكتم أنينه كي لا يُسمَع، أما في ذلك المكان سيصرُخ عاليًا كيفما يشاء.

هالها عُزلة المكان وحاجته للنظافة، يتكون من فُرش بسيطة، ومصابيح خافتة. شعرتْ ببعض الوَحشَة من الهدوء المُبالغ، نظَّفتْ المكان، تناولتْ الطعام، ثم اِنتظرتْ غروب الشمس في أُفُق البحر.

جَنَّ الليل، وهبَّ نسيمٌ عليل، بدأتْ تشعُر بِارتخاء جفنيها مع شاعرية أضواء النجوم، فاِفترشت رمال البحر وزاغتْ عيناها نحو الشاطئ.

ظهرَ شخصٌ يتجه نحوها، حاولتْ أن تتبين الملامح فوجدتْ أنها اِمرأة ترتدي رِداءً أبيض؛ على كَتِفها وِشاحٌ أخضر يُشبه خامة الكتان، شعرها طويل مُموَّج مُنسدِل على سجيته، ترتدي حُلِيًّا من الأحجار الكريمة. تتجه نحوها مُبتسمة وإن كانت ملامحها حادّة.

اِقتربتْ منها وانحنتْ لتكون في مواجهتها:

– هل اِستحق ذلك الألم؟

جفلتْ من هيئة المرأة.

– من أنتِ؟!

ابتسمتْ المرأة في رزانة:

– أنا رفيقة دَربك في تلك العُزلَة.

استنكرتْ:

– لكني لم أدعوكِ.

ثم أدارتْ رأسها عنها:

– جِئتُ هنا للجلوس بهدوء، اذهبي أرجوكِ.

ابتدرتها المرأة:

– أم أنكِ جئتِ هنا بحثًا عن الإجابات؟

– أيّة إجابات؟

– إجابات الأسئلة التي تنخُر روحك وتقضُّ مضعجك، هل كان يستحق الألم إلى هذا الحد؟

اِلتفتتْ إليها مُتجهِّمة:

– عن ماذا تتحدثين؟ اتركيني أنعم بالهدوء.

– لا هدوء عزيزتي إن لم تصلي إلى الحقائق.

شعرتْ أنها لن تصل إلى نهاية من ذلك الجدل، كما أنها لا تُريد الشجار وإفساد هدوء المكان، ستضطر لمُسايرة المرأة حتى تنصرف ثم تنعم بالنوم مُجددًا.

أجابتْها:

– نعم شعرتُ بالألم.

وأضافتْ حانقة:

– وكان ألم الغدر أشد وطأة!.

سألتها المرأة:

– لِمَ؟؟ ألم تتوقعي؟ ألم يُسعِفُكِ حدسكِ؟ أم لم تُنبِّهكِ فِطنتك؟

غضَّنت وجهها بفارغ الصبر:

– وكيف سيُنبهِّنُي حدسي؟ ثم كيف تعرفين تلك التفاصيل أم أنك من المُنجِّمين؟

اتسعتْ ابتسامة المرأة،

– عزيزتي، بداخل كُل امرأة قوة هائلة، وحَدس قوي وفِطنة، أنا أُرجِّح أن فطنتك نبَّهتكِ ولكنكِ لم تستمعي لها.

شعرتْ أن المرأة نكأتْ جرحها، كجرَّاحٍ يُفتِّش عن رصاصة استقرتْ بالقلب، شعور مؤلم، لكنها تريد الخلاص من ذلك الألم الذي ينوء قلبها عن حِمله. أفسحتْ المجال لتتدفَّق الدماء التي تخنثرتْ بقلبها مُنذ أمد.

أجابتها بصوت مُختنِق بالحسرة:

– نعم صوتٌ بداخلي نبهَّني غير مرة، لكني لم أستمع، قد طغى حُبَّه على كل الأصوات، أحببتُه دون شرط.

نظرتْ إلى المرأة تلتمس منها إجابة،

– أيهزِمُ رجُلٌ امرأةً أحبَّتْه دون شرط؟

أجابتها بحزم:

– نعم يَهزِمُها. أكثر البشر لا يمتنُّون للعطاءات؛ يُحِبُّون الكَدح؛ السعي وراء المُحال.

أطرقتْ حزينة:

– إذًا هو جُرمي.

– نعم ولكن جُرمكِ الأكبر هو أنكِ لم تستمعي لحدسكِ الذي وهبه الله لكِ، غممتِ عينيكِ وتغاضيتِ عن رُؤية الحقائق.

أجابتها بأسى:

– لكني ما زلت أشتاقه.

أومأتْ المرأة:

– أعلمُ أن بعض الرجال بارعون في نصب الشِّباك؛ يلجأون لشتَّى الأساليب حتى تقع النساء في شِبكاهم، ثم يمارسون

الألعاب النفسية لتتعلق بحبالهم. أنتِ مُجرد مُعَّلقة الآن... عزيزتي: مزِّقي الشبكة وتحرّري، عودي إلى مياهكِ وتنفَّسي، وكما أخبرتُكِ؛ لن تنَعمي بالهدوء إلا إذا خَبُرتِ الحقائق.

سألتْها في لهفة:

– وما هي؟

– حقيقة واحدة أزلية مُنذ فجر التاريخ وإلى الزوال؛ منذ بِدء الخليقة ونشأة الإنسان الأول وإلى الآن؛ وهي أن الرجل يُدافع دومًا عن أُنثاه، يكفكف دمعها قبل أن يسقُط، يفي بوعده، يحملها فوق قلبه.

أخرجتْ المرأة من جرابها حجرة كريستال:

– انظري إلى الحجرة، إما أن يكون حُبَّكُما بتلك الشفافية أو لا يكون، لا أعذار، لا وسطية في الأمور، إما أن يكون فارسًا نبيلاً، أو صُعلوكًا تعيسًا.

ثم همستْ لها:

(أمَّا خَلاصكَ فبين عينيكَ
ولُبِّ قلبِكَ وصفاءِ حَدسكَ
فَلا تهجر الصدق
وإنْ جفلتَ وإن سقطتَ
فسيُقيمكَ قَلبُكَ
دواؤكَ من دائِكَ
ومِنَّ السُّمِ التِّرياق

أنصِت للصَّمتِ
واسبح فِي السُّكون
تتطهرْ روحُكَ
ويَستقيمْ قَلبُكَ).

•••

استيقظتْ على صوت حفيف الشجر وهدير الأمواج، نظرتْ حولها، الليل ولَّى والشمس تشرق في الأفق، لكنها لم تجد المرأة، أكان حُلمًا أم أنها من جنّيَّات البحر؟

نهضتْ، فسقطت قطعة الكريستال من على صدرها. اِلتقطتْها، فانذعرتْ وازدادتْ دهشة، توجهتْ لموظف الأمن بالقرية تسأله عن المرأة التي وكأنها أتتْ من فِرقة صوفية، أخبرها أنه لا يوجد سُكَّان بهذه المواصفات في المنطقة، لا يوجد إلا الشاليهات الخالية والبحر والسُكُون.

تردَّد صدى في عقلها:
(فِي السُّكونِ تُولَدُ الذَّات
وتُشفَى الجِراح
ويَسْتكِينُ القَلب).
أهي ذاتُها؟!

تحسَّستْ صَدرها موضع الكريستالة، شعرتْ كأن قلبها يضُخُّ الصفاء والحُبَّ من جديد.

قضتْ الثلاثة أسابيع وهي شاعرة بالاِمتنان، كأن في كل يوم يُومِض شعاعٌ جديد داخل قلبها.

وفي أخر يوم، وقبل أن تغادر؛ قبَّلت الورود والأشجار وأشعة الشمس ومياه البحر.

حزمتْ حقيبتها، وشكرت رفيقة دربها؛ التي لن تتركها بعد الآن.

زُلَيْخَة

في مجلس قصرها المهيب على فُرشٍ ناعمة من حرير، مكسوة بريش ناعم ومُزبرَجة أطرافُها باللآلىء وأحجار من ألماسات وعقيق، وبُسط بخيوط الذهب وشموع وبخور وكؤوس من شراب العنب الياقوتي، تنظر من علوها إلى الشعراء والمُغنيِّين والرسامين. يومها المُفضَّل هو يوم مجلس الأدباء والعلماء، تستمع إلى هذا وذاك، ومن ينال رِضاها تُلقي إليه بمكافأة:

– اِذهب واِبنِ صرحًا، وأعطِ علمك للصغار، أريد الجميع في مملكتي حُكماء، ولن تُؤتى الحكمة دون العِشق، ولن يكون العلم دون الفن، الجاهل هو الذي لا يعرف تذوق الموسيقى، كالذي لا يعرف الفضيلة؛ هل رأيتَ عازفًا يقتل أو يسرق؟ هل رأيتَ رسَّامًا يشهد زورًا؟ هؤلاء هم رُسل الطبيعة ليحاكوها.

سألتْها إحدى الوصيفات:

– وماذا عن الجمال؟

– الجمال هو الطبيعة، كالورود في أشواكها كما في رقتها، تكتسب نضرتها بالماء النقي، كما تكتسب الروح نضرتها بالصِدق. والجمال الداخلي كصفاء السماء، متى اجتمع الاثنان خرجتْ لوحة فنية تحاكي جمال الطبيعة، أما عن العينين فهما مُفتاح الروح، والشِّفاه خمرُ الجنة.

سألتْها:

– ومن يستحق من البشر أنا يرتوي من جنتك؟

اِلتقطتْ كأسها ضاحكة:

– لم يُوجَد على الأرض بعد.

ثم قضمتْ حبَّة العنب فاندمجتْ مع خمر شفتيها قبل أن تُلقي بطرفي عينيها فتراه.

دخلَ مجلسها حاملاً قيثارته، يلبس عباءة زرقاء، مُزيَّنة بألوان خضراء وتحتها يرتدي ثوب الفرسان، شُدِهَ من جلال المجلس وجمالها، وهي خُيِّل إليها أن جماله كجمال يُوسُف في هيئته وقلبه الصاعد نوره إلى وجهه، اِلتقت أعينهما وبدأ العزف.

عزفَ نغمات كأنها أصوات البحار وحفيف الشجر وغناء البلابل وصوت رفرفة أجنحة الفراشات وهطول المطر، بل كأنها نغمات من خارج الكون.

أغمضتْ عينيها وكأن أوتاره لها أنامل تُداعب مواضع الألم بجسدها.

في ذلك الموضع خاضتْ حروبًا وأُصيبَتْ بسهمٍ نافذ، وفي موضع آخر أُصيبتْ بسهمٍ مسموم، فأخذ عنها بأوتاره آثار السُّم كأنه الترياق، وفي تلك المواضع ندوب لشظايا، أخبرته في سرها وهي مُغمَضة العينين:

– لو تعلم كم حربٍ خُضتُ لأكون بتلك الصلابة، وكم أثمانٍ بذلتُ لأكون في هذا الترف، أحملُ على عاتقي مصائر

آخرين، أحكمُ تلك المملكة وحدي، ومعي أغنيات وأشعار وموسيقى، أنا والسماء والأشجار رفقاء.

سألها في سِره بصوته الهامس:

– أتريدين أن آخذكِ إلى السماء؟ أن تري ممالك أخرى وفواكه لم ترها عين؟

لم ينتظر إجابتها، حملها بأوتاره، أخبرها:

– هنا أُناس يعيشون تحت النجوم، يأكلون من ثمار الأرض، يزرعون ما يأكلون، حتى ملبسهم، ويتزيَّنون من أحجار الجبال، ويغتسلون في زُرقِة البحر.

وضعتْ يدها فوق يده:

– اتركنا هنا نمكث الليل، ونوقد شُعلةً من دِفء قلبينا، سنشرب شرابًا من فاكهة صنعته الملائكة.

سألها:

– أتريدين أحضاني؟

صمتتْ

فأشار إليها:

– هَلُمّي، رأيتُ عينيكِ تنظرُ إليّ في أحلامي.

أجابته بعينيها:

– أتكونَ قدري، أتكونَ رائح الجنة؟

ثم أخذها من يدها في رحلة إلى ممالك أخرى.

أخبرها:

– هؤلاء بشرٌ يَكذِبون، يزيِّفون، ينشرون الإفك، يقتلون، يرتدون الأقنعة.

أومأتْ له:

– أعرفهم جميعًا، فردًا فردًا، يوجد من قتلتْهم في معاركي، أما الباقون فهم الهاربون من قبضتي.

أخبرها:

– يومًا ما سألقي بهم بين يديكِ، وهذا عهدي إليكِ.

ثم وضع يده فوق قلبه مُتنهِّدًا:

– وأنا خُضتُ حربًا معهم.

ثم صمتَ.

اقتربتْ واضعةً يدها على قلبه في تساؤل:

– هل أنت فارِسٌ من النبلاء؟ أم أنكَ رسولُ العِشق إلى الأرض، تحمل بيديكَ البلسم الشافي؟ هل أوجعكَ قلبكَ يومًا؟

– أنا الفارس الذي حاربتُ بسيفي نهارًا، وعزفتُ على أوتاري ليلًا، وغنيتُ لأُضمد جراح حروبي.

نظر إليها مُتأملًا:

– هيا حبيبتي لن نمكث هُنا طويلًا.

– هل أنا حبيبتك؟

ابتسم في حِنو:

– ما رأيك لو صعدنا فوق القمر؟

– القمر مُعتَم.

– سنضيئه.

– ثم بعد القمر؟

– سنذهب للكوكب المُنير؛ يوجد هناك أنهار عذبة ومياه باردة وزرع وخصب وأزهار ناعمة كرقتكِ، فواحة عبيرُها يمحو الألم ويُسكِن الفؤاد، وبعدها سنذهب تحت النجوم مجددًا.

انتهى من عزفه، فعادتْ من عند النجوم، فتحتْ عينيها، ظلَّتْ ساكنة، كأنها عادتْ من حياةٍ أخرى بروحٍ أخرى، بل هي الروح التائهة الدفينة التي لم تجلس معها مُذ أمد. نهضتْ من مجلسها، اقتربتْ منه، وهو ثابت كالقمر في السماء، كيُوسُف في يوم العِصمة، عيناه لم تترك عينيها ورموشها المُكحلتين بالكُحل الملكي.

أشارتْ نحو مجلسها:

– هذه جنَّتي وكنوزي اللائي كنتُ أحسبهم كذلك، إلى أن اِلتقيتُ بجنتكَ، هذا المُلك وهذا الترف لك.

ثم خلعتْ عنها تاجها وألقته، وخلعتْ عنها عباءتها الملكية، وظلَّتْ بثوبها الأبيض الرَقراق، يحكي فتنتها.

– أدخلني جنتكَ، أنت يُوسفُي.

خلع هو بدوره عباءته الزرقاء المُزينّة بألوان الحياة، ودثَّرها بها، وضع على جسدها بلسمًا شافٍ، بعطر الزهرةِ الزرقاء، دلَّكها، فتنفستْ كأنها أنفاسها الأولى، ثم سكب لها كأسًا

بفاكهة لم ترها من قبل، سألته عنها، فأخبرها:

– تلك نكتار الحياة.

شربتْها فعادتْ نضارتها، كأنها لم تخض حربًا يومًا.

خَفَايَا الرُّوح

كان اللَّيلُ هو رفيقُها وسَلواها؛ إلهامُها الذي يبعث إليها بجميع التصورات، تسهر ساعات طويلة في حُجرتها ترسم معه، تستيقظ والشمس في منتصف السماء، رسمتْ كل شيء، جابتْ البرية بتفاصيلها، لعقلها القُدرة العجيبة على تصوُّر الأشياء حتى وإن لم ترها على الواقع.

في ليلة غابتْ فيها النجوم، أحسَّتْ بانقباضٍ غريب، بدأتْ تلوذ إلى لوحاتها. وضعتْ فنجان قهوتها وسيجارتها وبدأت تخُطّ بريشتها أشكالاً غير مُنتظمة.

تكوَّنتْ الأشكال وظهرتْ ملامحها، فجأة سقطتْ ريشتها وانتابها الهلع؛ تجلَّى على لوحتها كائنٌ مُخيف كأن عينيه تنظران إليها. غطَّتْ لوحتها وذهبتْ إلى مضجعها باكرًا على غير عادتها.

كانت تشعُر بارتجافة في جسدِها، أغلقتْ عينيها في محاولة للخلود إلى النوم. ظهر لها داخل الحُلم وهو يضحك ضحكات مُرعبة، استيقظتْ وهي تلهث، لم تدرِ إن كان ما رأته حُلمًا أم أن هذا الكائن كان يتواجد في جَنَبات غرفتها؟

ذهبتْ لتسحتم، صنعتْ فنجان قهوة، ثم عادتْ لتجلس أمام لوحتها، كشفتْ الغطاء ليصعقها المنظر؛ اللوحة

اكتملت... وقد رأته!

لم تنتظر في الغرفة، أخذتْ شالها وهرولتْ خارجها، كانت عائلتها تغطّ في النوم، أدارتْ مفاتيح سيارتها وهي تحاول الاتصال بأستاذها رفيق.

– دكتور رفيق، أشياء غريبة تحدث في غرفتي منذ أشهر، أعلمُ أني أزعجتك، ولكن ما حدث الليلة رهيب.

جلستْ على الأريكة ترتعد، صنع لها كوبًا من القهوة الداكنة، رائحتها بدأت تُهدِّئ روعها. نظر لها مُتأمِّلًا:

– نور، كُنتِ أفضل طُلاّبي، كُنتُ أستعينُ بكِ في الرسم على الجداريات أثناء الاِحتفالات الرسمية، ثم اعتزلتِ كل شيء، أنا من يسألكِ الآن، ما الذي يحدث؟

– لا أدري، ولكني وجدتُ الراحة في العُزلَة.

عقَّب على حديثها:

– حبيبك خانك مع صديقتك، لكنها ليست نهاية الطريق.

– لكنه كان يحبّني حد الجنون.

بدأتْ الإجهاش بالبكاء:

– هي أدنى مني في كل شيء، خانني وفضَّلها علي.

ابتدرها:

– هذا تقديركِ أنتِ للأمور؛ أنها أدنى منكِ، أو أنه كان يُحبُكِ. يجوز أنكِ بكل مميزاتك لا تناسبيه، وما يناسبه هو الأدنى، أو أن نَّفسه هي التي لم ترتضِ العُلا.

ربتَ على كتفها مُشفقًا:

– ما حدث يا بُنيّتي أنكِ أصبحتِ تخافين كل شيء، حتى أنكِ بدأتِ ترسمين خوفك. كما أن لديكِ أمل أن يعودَ خاسرًا نادمًا، فيهدأ جُرحك ألأنثوي. ولكن حتى وإن عاد، هل هذا ما ترتضيه؟ إن كان هو رضيّ بالأدنى، هل ترتضين؟

ثم التفتَ ينظر من النافذة:

– هيا الشمس على وشك الشروق، سأقلك إلى المنزل، سآخذ سيارتي وأسيرُ خلفِك.

نظر لها قبل أن تغادر:

– بُنيّتي حِبي ذاتك واكتشفيها، ارسمي ما ترغبين أن يأتي إليك مُستقبلًا، ارسمي أمنياتك وآمالك وضحكاتك، واعلمي أن من يتوق إلى ضحكتك هو في مكان ما في هذا العالم.

نظرتْ إليه متحيرة. حاول طمئنتها:

– كم من أشياءٍ تخيَّلناها فحدثتْ أو عباراتٍ نطقناها فتحققتْ.

أومأت إليه:

– نعم هي صُدَف.

– لا صُدَفَ في الحياة؛ إنها دقة صُنِعَ الكون، ومعجزة أرواحنا، ألا تتذكَّرين حكايات الجَدَّات؛ كُنَّ يخبرن الصِغار: يا بني لا تتفوه إلا بالجميل، واحذر أفعالك، هي شجرة تَسقِيها إما طيبة وإما خبيثة.

ثم ابتسم:

– غدًا سترسمين داخل غُرفتك شيئًا جديدًا.

عادتْ إلى غرفتها دقَّقت باللوحة وَجَدَتها كأنها صرخاتٌ لوجهٍ خائفٍ يرتعب داخل هُوَّة سحيقة. مزَّقتْ اللوحة ونامتْ لليوم التالي، حتى أتتها نسمات العصر من خلف النافذة. فتحتْ الستائر، عطَّرتْ الحُجرة، بدأتْ ترسم شكل ضحكتها، ثم نامتْ.

في الصباح استيقظتْ تضحك، أخبرها الجميع أنها ازدادتْ جمالًا.

قررت إنهاء عُزلتها، وجدتْ دعوةً لمعرض لوحات فنية فقررت الذهاب.

أخذت تجول بين اللوحات في تمعُّن واستمتاع، وفجأة توقفتْ أمام لوحة شُدِهت أمامها؛ رأتْ لوحة لامرأة تضحك بسعادة غامرة، وجهها يُشبِها، اعتقدتْ أن الدكتور رفيق رسمَ لها لوحة حتى يؤازرها، لكنها وجدتْ شابًا وسيمًا يقف بجانب اللوحة ينظر إلى اللوحة وإليها بنفس الدهشة. كان يتأمَّلها بإعجابٍ بالغ، أخبرها:

– كنتُ أتوقُ لتلك الضحكة فرسمتُها، لا أعلم أن صاحبتها تحيا في هذا العالم، وأنها ستأتي إليّ يومًا.

الضوءُ المُتخافِت

أربكه تهديدها الصارم بكشف مُخطّطاته وأنها ستُسقِط قناعه الزائف وتظاهُره بالورعِ والمثالية. حافظ على هدوئه نسبيًا، أخبرها بنبرة هادئة مُصطنَعة أنه يُحِبُّها ولم يُحِب امرأة سواها.

اقترب يحتضنها:

– أخشى عليكِ حبيبتي، بل أُشفق أيضًا.

ابتعدتْ وهي تنظر إليه شزرًا، ثم سألته في تهكُّم:

– أتخشى علي أنا؟!

نظر إليها بلُطف:

– بالتأكيد، من انفعالاتك المُفرِطة، حتى أنكِ منذ يومين أزلقتِ الأطباق من بين يديكِ، يجب أن تذهبي لطبيب ربما تحتاجين لبعض الأقراص المهدئة حتى تستطيعي السيطرة على حالك.

صاحتْ في حنقٍ باكية:

– نعم أزلقتها وأنا أتسمَّعُك تُحادِث امرأة وتتفاخر بهداياك الثمينة لها، في حين أن طِفلك نام باكيًا في تلك الليلة لأنكَ رفضتَ شراء لعبته المُفضلة بحجة أنه يحطِّم ألعابه، ألم يرق له قلبك؟

نطقتْ كلامها وجسدها يتزلزل من الغيظ والقهر.

فرَّج شفتيه محاولًا الابتسام:

– لم أكن أُحادِث أحدًا عزيزتي، كنتُ نائمًا.

ثم عقَّب:

– هذا ما أخشاه عليكِ، بدأتِ ترين ضلالات وتسمعين هلاوس.

عندها أخذتْ في الصراخ مُحطِّمةً ما حولها:

– أتحاول إقناعي بالجنون؟

بدت عليه ملامح الذُعر فالأمر تفاقم، وزوجته انتابها حالة هياج عصبي حاد. هاتف والدها الذي سمع الصراخ والتحطيم من سماعة الهاتف. دقائق وأتى مُهرولًا مع والدتها وأخيها. صدمهم منظر الحُطام والزجاج المُتناثر.

قال والدها باقتطاب:

– اليوم شهدنا الجُرم؛ إنكِ بالفعل كما يخبرنا زوجك؛ تحتاجين لطبيب نفسي.

ثم بدأ صوته يوهن:

– وإلا يا بُنيتي سوف تُلحقين الضرر بنفسك وطفلك.

ازداد انهيارها، سقطتْ غير مُصدِّقة وعقلها يتمزق بين الوهم والحقيقة رغم علمها بها. لكنه نجح في إقناع أقرب الأقربين بجنونها، فهم لا يعلمون أنها بدأتْ بالفعل في الذهاب لطبيب نفسي سِرًّا، وقد أخبرها كل شيء: أن زوجها يرتكب

أبشع جريمة إنسانية؛ وهي قتل النفس حيَّة!

تكون خطواته الأولى إغراقها بالمشاعر الحالمة حتى تشعُر وكأنها داخل حُلمٍ ورديّ، ثم يقنعها بأنه يصارع المستحيل لأجلها، ولا مانع من فعل بعض الأشياء النبيلة من أجل أفراد أسرتها، حتى عندما يتلاعب بها يخبرها « ألم أكن أفعل من أجلك تلك الأشياء الجميلة» وعند أول انكشاف لجزء من ملامحه، تركض لتستغيث بعائلتها الذين رأوا نُبله وأختبروه بأنفسهم فلا يصدِّقونها. وإن أفاقت من أحلامها وبدأتْ بإدراك كل شيء، يتلاعب بعقلها ويقنعها بالجنون حتى تُزهق روحها قطرةً قطرة فيتملَّك زمامها ويشعر بأفضليته.

- «الإضاءة الغازية» «الضوء الخافت» «التلاعب بالعقول» «Gaslighting»: مصطلح يعبِّر عن أحد أنواع التلاعب النفسي الذي يمارسه شخص على شخص آخر أو مجموعة من الأشخاص، إذ يسعى إلى زرع بذور الشك وزعزعة ثقة شخص ما في نفسه، وإشعاره بالخوف والضعف، وإقناعه بأنه موهوم أو مجنون.

البَلَّورة

هل عَرفتْ الأرض كِذباتٍ تمشي على أديمها أكثر من البشر؟!

قضى نصف عمره في تنميق كِذباته، وقضى النصف الآخر في محاولة التستُّر عليها وإخفائها عن الأعيُن.

ومن أجل كِذباته أنفق الغالي والزهيد من مَكره ودهائه، وحرَّم النوم على عينيه، حتى شكَّل الخوف ملامح وجهه وأصبح الرفيق الوفي لروحه. ونال الجزع من خطوط وجهه؛ أصبحتْ عيناه كعيني صنمٍ مُتحجرتين، يرقد خلفهما هُوَّةٌ سحيقة من الجحيم.

استيقظ يومًا على مقولة قرأها وهو يدخِّن سيجارته صباحًا وينفُث كُره العالم من مخزون صَدره:

(الحقيقة كالبَلَّور الشفاف تعكس ضياءها، ومآلها السطوع مهما مرَّ الزمن. أما الزيف فمآله الموت).

شعر بانقباض قلبه، وببرودة تسري في أطرافه، هو يعلم أن أقصر الطُّرُق هو الخط المستقيم، ولكن، مضى العُمر، وكَثُرَت جرائمه وغَلُظَ قلبه.

«قَلب»؟!

ما لهذه الكلمة من معنى في قاموسه، هو لم يكن لديه قلب

يومًا، ولم يختبر هذا الشعور قبلًا، ولا يعرف ما هي الشَّفقة، قد حُرِمَ هذا الشعور منذ طفولته، فكيف يمنح ما لا يعرفه؟

و من أجل التستُّر على كِذباته دفع البعض إلى الهاوية، وكم من صورٍ شوَّهها لينال الأفضلية، وكم من فِتنٍ أثارها، ونفوسٍ قتلها حيَّة، يذكر عندما أنهى حياة أعز أصدقائه وزميله في العمل فوق كرسيٍ مُتحرك من هول الحَسرة ويَتَّم أطفاله الأربعة وهو لا يزال حيًّا بعد أن حرَّر تقريرًا كيديًّا ضده ليستولي على موقعه في العمل.

يتراءى في عينيه أشباح ضحاياه في أحلام اليقظة، يتصورهم يجتمعون، يتباحثون كيفية الاقتصاص منه، يرى أياديهم تمتد للانقضاض عليه. أما في منامه فيرى أُناس يُحدِّقون إليه؛ يرونه عاريًا من خلال نافذة زجاج شفاف، يراهم جميعًا.

سيتحمَّل ويكون مُستعِدًا لكل الاحتمالات، لكنه غير مُستعِد لرؤيتها؛ هي مُغامرته الخِطرَة التي كانت ستودي بحياته، ودرسه الذي لن يتعلمه حتى وهو يلفظ أنفاسه.

أعجبتْه، رأى فيها الرِّضاء لغروره المتطرف، وحقلاً بِكرًا يملأه بأكاذيبه، مارس عليها دور المُحِبّ حتى صدَّقه هو. بحث في كل الطُّرُق والسُّبل للوصول لقلب فتاةٍ طازجةٍ مُشرِقةٍ ليفوز بها ويتفاخر أمام أصدقائه، فتكون كعِقد اللآلِئ المُزيِّن لكِذْباته.

لكنه استيقظ على كارثة غير مُتوقَعة، وتبعثرت أحلامه على قارعة الطُّرق الوعرة؛ أصبحتْ حبيبته كالغُصَّة في

صَدره وكالشوكة في ظهره، استيقظتْ هي قَبله وفتَّحت عينيها المُغمَّضتين. هي دون العالم قرأت أكاذيبه وكشفت مُخططاته.

يراها الآن تلوِّح له من بعيد، تنظر له بقوةٍ مُبتسِمة في ردائها الأحمر الذي أحبَّه، وأحمر شفاهها الشهية، وفي يدها الأخرى سكين لامع حاد النصل وعيناها تنطق شَرًّا وسُخريةً في آنٍ.

بدأتْ تقترب، فتجمدتْ عروقه مُرتعدًا، اقتربتْ على مَهل، لامستْ بأصابعها طرف ذقنه، ثم اقتربتْ من شفتيه مُتَطَلِّعة إليهما باشتياق. همستْ له:

– سوف أقتصُّ مِنكَ يا حُبَّ العُمر ومُهجة الروح، يا أصدق كذبة.

تبدَّلتْ نظرتها إلى نظرةٍ قاسية لم يعهدها، وفجأة التقطتْ طرف لسانه وهَوَت عليه بالسكين؛ قطعته!

أمسكتْ طرف لسانه في يدها وضحكتْ في جنون ويدها تقطُر دمه، ناظرةً له في تشفٍّي:

–هكذا نَزف قلبي وجفَّتْ روحي.

صاحتْ مُنتشية:

– الآن فقط توقف بث أكاذيبك عن البشر.

ألقتْ لسانه على الأرض شزرًا، ثم نظرتْ إليه نظرة لقائهما الأول وضحكتْ في سُخريةٍ، ثم ولَّت عنه، رحلتْ وهو يصرخ عاجزًا صرخات لا تعبُر من حَنجرته.

أفاق من أحلامه وانتفض من مضجعه مُرتعبًا، أنفاسه تلهث وقلبه يكاد يتوقف من الرجيف... ماذا سيفعل إن كُشِفَ أمره وتشوَّهتْ صورته الكاذبة التي أنفق في سبيلها كل شيء، حتى أنه أفنى صديق عمره؟

غطَّى وجهه بيديه المُرتعشتين وهو جالس على حافة سريره، وما كانت إلا لحظات وبدأ يهدأ، ثم انفرجتْ أساريره، ابتسم نصف اِبتسامة مُتهكِّمًا:

– لن يحدث شيء، سوف أُنكِر وأُضلِّل، لن أجد صعوبة في تأليف المزيد من الكذبات.

ازداد حنقًا وتعالتْ نبراته:

– سأجعل منهم هم الوحوش القاسية، قلوبهم منزوعة الرحمة، وأكون أنا الضحية المِسكين.

وأضاف مُفاخِرًا وابتسامته على اتساعها بصوت مُتحشرِج وعينين دامعتين:

– لن أجد صعوبة في قلب الحقائق، لن يحدُث شيء، لن يحدُث شيء.

شعر بالتعاظُم، ثم غمرته نوبة من الضحك الهستيري، أعقبها نشيجٌ مرير!

مُثلث الخطر

أخبرته زوجته في الصباح أن عليه تدبير مبلغ من المال للوفاء بالتزمات المنزل، ثم وبَّخته بأنه لا يُحسِن اتخاذ القرارات لحياتهم لأن ما يهمه هو ذاته فقط.

– ياله من يومٍ مُملٍ حزين، ماذا تريد هذه المرأةُ مني؟ سوف أنتقم منها وأُعاقبها حتى تكُفَّ عن الثرثرة.

خطرتْ بباله فكرة: «اليوم لدينا تجمُّع عائلي، سوف أُوقِد قلبها نارًا».

دلفَ إلى بيت العائلة المُجتمِعة وجال ببصره بين الفتايات حتى وقع بصره على صديقة أخته التي تصغره بسنواتٍ عِدَّة؛ فتاة جميلة تضحك ببراءة وهي تُسامر صديقاتها.

لكز زوجته التي تجلس بجانبه:

– أتعرفين حبيبتي من هذه الفتاة الجميلة؟ فأنا لم أرها من قبل.

ألقتْ زوجته نظرة على الفتاة بامتعاض ثم نظرتْ إليه شزرًا في غضبٍ مكتوم:

– لا أدري.

علمَ أن جُزءًا من مُخططه تمَّ، وقد أوقد نيران الغيرة في قلبها.

نهض وبدأ الاقتراب من الفتاة، ثم مال عليها، هامسًا في أذنها:

– أشبِّه عليكِ، من أنتِ؟

التفتتْ إليه الفتاة وهي مُنزعجة من سماجته:

– وما شأنك؟

ابتسم لها ابتسامة واسعة، ثم عاد أدراجه بجانب زوجته.

صاحتْ زوجته بنبرة غاضبة:

– بماذا تحدثتَ مع الفتاة؟

أجابها بابتسامة مُصطنَعة:

– لا شيء، يبدو أنها مُعجبة بي، طلبتْ رقم هاتفي وأنا بالطبع رفضتُ.

ثم أضاف:

– يا لها من حِيَل لهؤلاء الفتيات!

ألقتْ زوجته نظرة أخرى على الفتاة وهي تقذفها بسهام من نيران. ماذا تفعل؟ هل تُخبِر أخته أم والدته عن تلك الفتاة المُتبجِّحة؟ لكنها تخشى على كبريائها فآثرت الصمت، ولكن عقلها وروحها لم يصمتا؛ عذاب أليم، لكنه لِمَ أخبرها بذلك؟ فهي ليست المرة الأولى التي يحاول فيها زوجها إثارة غيرتها.

لم تجد مفرًا سوى مُحادثة صديقتها الأخصائية النفسية، فحتمًا لديها تفسير لأفعال زوجها.

«زوجك يا عزيزتي يُعاني من اِضطراب خطير، هو يجد لذة

كُبرى في تحطيمك ليُغطي على عجزه عن الوفاء بالتزماته المادية، ويستعين بطرف ثالث فيستخدمكما معًا كسلاح للغيرة في وجه بعضكما، وهي حيلة يستخدمها بعض الذكور ويتغذون عليها، ما عليكِ فعله هو أن تمنعي عنه ذلك الغذاء فلا تستجيبي لتلك الأفعال».

شعرتْ أن الأرض تدور بها، هل جزاء الإحسان الألم؟ كم ساندته، وتحمَّلتْ معه أزماته، بل أنها كانت تفي بمتطلبات كثيرة نيابةً عنه.

قطع تدفُّق أفكارها وصوله وفتحه لباب المنزل وهو يصفِّر بسعادة:

– أتذكرين حبيبتي الفتاة التي رأيناها في بيت العائلة؟

التفتتْ إليه وهي تبتسم ابتسامة باردة... فتابع حديثه:

– قد حصُلَتْ على رقم هاتفي عنوة من أختي، وأخذتْ تحادثني في الطريق، لكني نهرتها بالطبع.

اتسعتْ ابتسامة زوجته:

– لِمَ حبيبي تكسر قلب فتاة صغيرة جميلة تُحبَّك، ما رأيك أن تتزوجها؟

رفع حاجبيه:

– ماذا! هل تقبلين بذلك؟

– نعم حبيبي، فسعادتك هي أولى أولوياتي.

ثم أخذتْ تصفِّر دورًا عنه، ودخلتْ حجرتها وهي تدلِّك يدها بدلال وغنج، وزوجها صامت، مُحملِق من أثر الدهشة.

– تُرى ماذا حدث لها!

ظلّ أيامًا وشهورًا يحاول إثارة غيرتها دون جدوى، بل تتدلل وتتغنج أكثر. بدأ يُصاب بالإحباط، فأصبح يصبُّ جُلَّ حنقه وغضبه عليها كل يوم وهي صامتة في حبور.

ثم بعد الغضب بدأ في محاولة استمالتها وإرضائها... فتزداد دلالًا، غير آبهة.

حَمَّالَةَ الْحَطَب

يقولون إن الحَيَزبون هي المرأة العجوز سيئة الخُلق أو الداهية، تدرَّج المعنى إلى العامية وأصبح يُطلَق على كل امرأة خبيثة، بغض النظر عن الفِئة العُمرية.

(١)

بعد أن فرغت الحَيَزبون من بعض مَهامها؛ وهي تطفيش خلق الله، حتى كاد البعض أن يقتلوا أنفسهم شنقًا تكفيرًا للخطأ الشنيع الذي ارتكبوه في حق أنفسهم؛ وهو معرفتها، وإن كان البعض لا حيلة لهم، فالحَيَزبون تُشبِه الأخطبوط أحيانًا؛ تُحاوِط الضحايا وتلتصق بهم التصاقًا أبديًّا لا يُنزَع إلا بحدثٍ جَلَل. وما أن تتجه أصابع الاتهام إليها جراء أفعالها الشنعاء، حتى تبدأ بضحايا آخرين تُجنِّدهم للدفاع عنها، وما أن ينتهي الضحايا الجُدد من الدفاع عن الحَيَزبون التي تتستر خلف الخراب كاللصوص بعد فِعلتها، حتى يكتشف هؤلاء الضحايا المُغفَّلون فعلتها فيبدأون بنبذها، فتبحث عن ضحايا جُدد!

قاعدة أصيلة عند الحَيَزبون: أنها لا تُواجِه، بل تستعين بأشخاص آخرين للدفاع عنها، وكذلك الحَيَزبون الرجل، نفس الصِنوان.

هناك نوع آخر من الحَيَزبونات لكنها لا تُشبه الأخطبوط وإنما الضُّفدع، تتواجد في أيّ مجال، تقفز وراء المصالح على أكتاف الآخرين؛ تسرق جهودهم، هي لا تسرق جهود الكِبار المُحترفين، إطلاقًا، فتلك عملية سطو مكشوفة، وإنما تُفتِّش عن مجهودات الشباب الجُدُد.

هي من ذلك النوع الذي ينفر منه الجميع، ولا يبقى في دائراتها إلا المُنتفعون.

فالحيزبون كُلما تقدمت في العمر ازدادتْ حماقةً بدلًا من النُضج، فتبدأ بالتصابي، وتنتقي ملابس المُهرِّجين أو تثير الفزع بملابس «الهالوين»، تُحدِّثها نفسها بأنها يجب أن تظهر بمظهر المرأة المثالية الرزينة.

- ولكن تلكَ الرزانة ستُخفي رقتي ودلالي اللذين بذلتُ مجهودًا جبارًا في تَصنُّعهما، إذًا سأُظهِر كتفي الناصع وأضع أحمر شفاهي فوق شفاهي المحيتين، أو ربما سأُشارك في العديد من النشاطات الأدبية والفنية حتى ألمع. بل سأُشارك في تأسيس مُلتقى أدبي فأنا مُبدِعة في قِمة الإبداع، سأُحدِّث بعض المُنتفعين لمساعدتي في الأمر. ولا يدري المنتفعون أنفسهم بماذا ينتفعون منها.

شرعتْ الحيزبون المتُصابية تفتح الجلسة الأدبية:

يجلس فتى شاعر واعد في الخلف، يستَمِع لحديثها هي ورُفقائها على المنصَّة، تَنِدُّ منه ضحكة مسموعة، يلتفت إليه الحضور فيرفع كفه مُعتذرًا، بأنه لم يتمالك نفسه من فرط سعادته بحضوره وسط قامات أدبية رفيعة!

تنقُّ الحيزبون في دلال:

– إذًا ما رأيك في صالوننا الأدبي الرفيع؟

أجاب على الفور:

– إنه في غاية الرُفع سيدتي، حتى أنه لا يوجد أرفع من ذلك.

وأخذ ينشُدُ:

إنكم الشُّعراء المُبجَّلون
بل المُتَخذلِقُون
وأنا الصُعلوك المُهمَّش
أُخفي منكم تَّهكُّمي
يا ليتهن قبل وفودكم
أجهضوكم أو أنكروكم
كم رأى الدهر بلاءً
ولكن بلاء وجودكم واصِب
وجرائمكم الشَنعاء
في حق الشِعر
ليس لها زائل.

ثم صفق الحضور والشعراء على المِنصَّة بانتشاء، ودعاه أحدهم للجلوس بينهم.

(٢)

أخذتْ تصول وتجول في سخط لا متناهي؛ هذه تمتلك فيلل وشاليهات، والأخرى تقتني مجوهرات، وأخرى زوجها يدلِّلها. ثم تركتْ السخط على الكائنات وبدأتْ السخط على الجماد؛ المنضدة في منزلها لامعة وقائمة وهي حالها مُعَوّج، ألقتْ بغضبها عليها فحطَّمتها ثم بدأتْ بالصراخ، فبدأ دخان يتصاعد من فتحات أذنيها وجميع فتحات جسدها، فالجميع بالتأكيد يحسدونها، وأنها بلا شك تحت تأثير سحر سفلي خطير!

(٣)

قررتْ الابتعاد عن زوجها فأخذتْ طفليها واستأجرتْ منزلاً متواضعًا، وأخذتْ تُهاتِف أفراد العائلة وصديقاتها يوميًا عن الزوج المتوحش الذي لم تهنأ معه يومًا، فكانت تأتيها الإجابات «إما أن تتأقلم على العيش معه وإلا لابد من الطلاق». فكانتْ تُجيبهم بأنها لا تريد الطلاق خوفًا من شماتة الأقربين.

ثم تستيقظ في اليوم التالي تاركة طفليها يلهوان خارج المنزل وتُعيد المكالمات الهاتفية على أفراد العائلة وصديقاتها، فيشيرون عليها بنفس الحل، فتخبرهم أن «الطلاق مُحرَّم وأنه أبغض الحلال» وتظلّ يوميًا في نفس الدائرة.

وبعد أن اجتاحها شعور الوحدة، لم تجد سلوى سوى مواقع التواصل الاجتماعي، فعلاقات الإنترنت ستكون آمنة لا سيما إنها تُخفي صورتها.

(٤)

تستيقظ في الصباح الباكر قبل الذهاب للعمل لترفع صورها مع زوجها وأطفالها على الفيسبوك بعد التجمع العائلي السعيد بالأمس.

تظهر في الصورة متأبطة ذراع زوجها وهي تميل عليه، تبتسم من جمال الصورة ثم تهرب دمعة من عينها، فعَقِب الحدث السعيد عنَّفها زوجها لأنها أحضرتْ له الكرافتة الكُحلي بدلًا من الزرقاء، ويبدو أنه أراد أن يُعبِّر لها عن مدى حبه للون الأزرق فطبع منه مساحة هائلة على ذراعها.

تجول ببصرها على جهاز الحاسوب فتتذكر الرسائل المجهولة التي تأتيها عن زوجها؛ بأنه يخونها، ورسائل أخرى أنه يتحرش بالفتيات المراهقات وربما بالأطفال! تتذكر أطفالها المُعنَّفين وأنهم ليالٍ كثيرة ناموا يبكون. لكنها ستتغاضى عن عذابات أطفالها، فالأهم هو الظهور بمظهر العائلة السعيدة.

يأتيها صوت إخطار على الفيسبوك أن زوجها رفع صورة لهما، كتب: «زوجتي الحبيبة الغالية كل عام وأنتِ بخير أنتِ جوهرتي وحبيبتي، زوجك المُخلص». فتمسح دموعها وتبتسم.

(٥)

هي داعية للمُثُل والقيم والعِلم، ترتدي الفضفاض لأنها يجب أن تظهر بمظهر المرأة العفيفة، تُشارك بالمؤتمرات العلمية والأنشطة الاجتماعية، تشجُب الخاطئين دائمًا. الجميع يثني على مِهنيتها وفضيلتها وعِفَّتها، يتبعها الكثيرون على صفحات السوشيال ميديا حتى يستفيدوا من نصائحها الأخلاقية القيِّمة.

وعندما يَجِنّ الليل... تخلع عنها الورع وتقابله في السر.

(٦)

هذا العالم المتآمر وهؤلاء الوحوش من البشر؛ ليسوا إلا فُرص؛ لم يسمحوا لها باستغلالهم، ما هم إلا سُبل لتلبية رغباتها؛ امتداد لاحتياجاتها، تترتب أفضليتهم حسب ما تنتفع به منهم. قبل أن يستعيذوا منها عند أول لدغة، فيتضاعف حقدها للعالم.

أما النساء المتوحشات من حُسَّادها فهن اللائي لديهن ما تفتقده. يجب أن ينتبه الكون ويدور حولها، لذا تبغض المناسبات السعيدة التي يتصدر فيها الآخرون المشهد. فتحاول بكل جهدها تعكير صفوهم.

تُفتِّش داخل خوخائيتها وشراهيتها عن ما يبعث لها

السرور فلا تجد إلا اللذة بإيقاع الفِتنات. وإن كُشِفَتْ تبرُع في قلب الأمور، ثم ينضمُ كاشفها إلى قائمة أعدائها.

على الجميع بذل ما استطاعوا لإرضائها، وإلا ستمارس عليهم الابتزاز العاطفي؛ من البكاء والصمت العقابي. ستوقع الفتنات بين خصومها وأحبائهم؛ ستحرِّم عليهم الهناء والاطمئنان.

يراقب إبليس ما يحدث ذاهلًا ومنتشيًا:

«أما أنتِ يا امرأة فقد تفوقتِ على جميع تلامذتي، حتى أنني أشرُف أن تصاحبيني جانب عرشي على الماء».

(٧)

تترجَّل طُرقًا وأزقةً حتى تصل إلى بيت «الشيخ يُسري» الروحاني، تُخرِج من حقيبتها مبلغًا من المال، تُلقي به إليه فوق المنضدة كأنها تكُبُّ النيران من صدرها...

لم تسر الأمور كما ترغب؛ لذا كان لابد من تدخُل الشيخ؛ هو مُنقذها ليقضي ما استعصى عليها.

– ما بُغيتكِ اليوم؟ ربط، سلب، تعطيل؟

تهلَّل وجهها في انتشاء عند نطقه الأخيرة.

تضغط على شاشة هاتفها بأظافرها الطويلة لترفع منشورًا؛ تدعو الله جِهارًا أن ينتقم من السَّحرة وأشياعهم...

ترفع أنفعها عاليًا، فتُباغِتها ذكريات نشأتها...

من أسفل سافلين؛ يخبرها ضميرها المُظلِم: إن نهج الشُمط واحدٌ لا يتعدَّد.

(٨)

مرَ زاهدٌ على قبيلة مُجاورة، وجدهم حزناء ثائرون. سأل كبيرهم عن أمرهم فأخبره أن امرأة أوغرتْ الحرب بين القبائل، فنقص رزقهم وذهبَ مالهم.

قال لهم:

- لا تأمنَنَّ شر حمَّالة الحَطَبِ، نيرانها تشبّ أينما خطتْ.

هل برد يومًا قلبها، أو ابتهج عبوسها؟ لو التقطتَ لها دُرّة من السماء لن تقرّ بها. إن أعطيتها سِرك أذاعتْ، وإن رأتْ سعادتك تكدَّرتْ.

(٩)

أن يُشَاور عليها بالبَنَان، ذلك هو مُتنفّسها ومُبتغاها. جلستْ على المنصَّة في الندوة العلمية التي مُدتها ساعة فتحدَّثتْ الساعة والنصف، ولم تنسَ أن تفتعل المشاكل مع القائمين على الندوة لأنها تريد الجلوس في الوسط وكأن شيئًا يهمس في أُذنها: «الظهور والشُهرة». ثم بعد الساعة

والنصف أخذتْ تقاطع الجميع، فهي المُتحدِّثة الرسمية الوحيدة لأي تجمُّع.

رمَقها وهو يجلس جانبها على المنصَّة بازدراء وهي تقاطعه، سألها:

– أستاذة، ألا تتحملين أن يتحدَّث أحد غيرك؟

– لا

قالتها وهي تدقّ بعُنف على المنضدة...

– لأنني أُدافع عن وجهة نظري.

أخذ نَفَسًا عميقًا وحاول أن يُسيطر على حاله أمام الحضور،

– وِجهة نظركِ هُراء وأنتِ عدم، إن كان هناك دواء للسفسطة لكنتُ نصحتكِ بزيارة طبيب، لكني أخشى أن تُقاطعيه في الجلسة لأنك بالطبع تعلمين كل شيء أفضل منه.

ثم التفَتَ للحضور وهي تحملِق له بجنون:

– يا سادة... اجتنبوا الحَيزَبون، لا علاج ولا صلاح لها؛ هي هُوَّة عميقة نشأت في الصِغَر، لا عاطفة ولا صدق لديها، ولن يكون، كيف تستطيع إعطاء شيء لم تختبره.

وإن كان يوجد ما هو مُشترَك بين الحيزبونات، فهو الشعور العميق بالنقص والحَنق، ينتج عنه حُبّ الظهور والجشع والأذى غير المُبرَّر للآخرين.

كارِه النِّساء

رغم أنه كان دائمًا يُقابَل بالرفض الممزوج بالإهانة أو التجريح، إلا أن محاولاته لا تتوقف عن استمالة كل أنثى يقابلها في يومه، وكأن كرامته باتتْ لا تغضب.

جلس على مكتبه في العمل، فتح الحاسوب المحمول ليُطالع صفحة صديقه على الفيسبوك وصوره مع عروسه فاتنة الجمال. شعر بالنقم، متى سيحظى بأنثى جميلة، يُلامس بشرتها الرقيقة ويشمُ عطرها الأخَّاذ.

يرى أنه بمثابة الأعذب، لا يحتسب الثمانية عشر عامًا التي قضاها مع زوجته وابنة عمه متواضعة الجمال التي اختارتها له والدته بعد أن رفضته ابنة الجيران، وأخبرته إن استمر في مُطاردتها ستفضحه في الحي، ولم تكتفِ بالتهديد، لكن أخبرته سبب رفضها؛ بأنه قبيح الملامح، ولن تنظر له أيَّة امرأة.

وجد أن لقاءاته بزوجته كانت كالجائع الذي يسد رمقه بأيَّ طعام حتى وإن كان لا يشتهيه، وهي كتمثال نزعوا منه الروح، لأنه من العيب أن تشعر المرأة!

مع كل رفض أو إهانة من امرأة كان يفتعل أيَّ شجار في المنزل مع زوجته ليُسقِط عليها حمم غضبه المكبوت.

أصبح العمل هو ملاذه الوحيد، ولكنه كشخص ناقم على

العالم لم يتوقف عن افتعال المشاكل مع زملائه.

صديقه الوحيد هو الحاسوب الذي يراقب حَيَوات زملائه من خلاله وينقم عليهم؛ زميله معتز ذو الجسم الرياضي وموهبة التصوير الفذة لديه الآلاف من المُتابعات الجميلات على صفحته. يكاد يشم رائحة عطرهن من مجلسه. يسأل نفسه، هو ليس لديه مواهب ولا مهارات تجذب النساء، ولا حتى لباقة في الحديث.

بينما هو غارق في أفكاره شمَّ عطرًا أنثويًّا جذَّابًا. اعتقد أنه ما زال يتخيل، إلا أنه سمع صوتًا أنثويًّا يُناديه:

– أستاذ بيومي.

رفع رأسه مُحملِقًا إليها وهي تمدُ يدها الناعمة لتصافحه...

– أنا سارة، تسلَّمتُ العمل اليوم، أخبرني أستاذ سامح المدير أني سأكون تحت التدريب وتحت إشرافك.

اتسع فمه على أخره، فظهر صفا أسنانه الصفراء المعوجة..

– أهلًا آنسة سارة. لا تقلقي أنا متعاون وسأوافيكِ بجميع التفاصيل.

ابتسمتْ في امتنان.

أول شيء دار بخلده؛ كيف ستبدو صور تلك الحسناء على الفيسبوك! لابد أنا لديها صور بفساتين السهرة. تُرى ما هو شكل فخذيها؟

ثم فجأة سألها:

– آنسة سارة، ممكن رقم هاتفك أو صفحتك على الفيسبوك؟

نظرتْ في تساؤل ودهشة.

فتابع:

– حتى أُرسل لك تفاصيل العمل توفيرًا للوقت والجهد.

أخبرته بامتعاض أن ليس لديها فيسبوك، وأنه يمكنه أن يراسلها على الإيميل الخاص بعملها.

نظرَ جانبًا كأنما خطرتْ بباله فكرة، سألها:

– ما رأيك لو نذهب بعد اِنتهاء العمل إلى مطعم كي نتحدَّث عن تفاصيل العمل أفضل من الرسائل.

– آسفة

– إذًا سأدعوك إلى قهوة.

فارتبكتْ صامتة.

لم يستطع أن يكبت غضبه المكتوم. سألها بنفاد صبر:

– هل تريدين أن أساعدك في العمل؟ أم تريدين تركه؟

نظرتْ له بحدة:

– أستاذ بيومي، يبدو أنك لا تعرف كيف تعامل النساء، ولا تعرف قواعد العمل، ولا حتى قواعد الحياة، حتى وإن أردتَ الحديث مع فتاة فيجب أن يكون بلطف وبعد فترة ليست بقليلة من التعارف، ولكن يبدو أنك رجل فج سيِّء التربية.

اشتد ارتباكه وبدا وكأن دخانًا يتصاعد من جمجمته، فيما هي مُستمرة في توبيخه:

– هذا إن نظرتْ إلى وجهك القبيح المُقزز أيّة أنثى.

كادتْ الأرض تميد به.

أضافتْ:

– أعتقد أن الأنعام لديها لُطف في التعامل أكثر منك.

ثم مزَّقتْ الأوراق التي كانت تحملها وألقتها أرضًا:

– أنا مُستقيلة.

بدأت أوداجه تنتفخ وتحمرّ، ثم نطق وهو يخرج لهيب الحمم المكبوت بداخله:

– سأكتبُ عنكِ تقريرًا بأنك فاشلة ومُستهترة وغير جديرة بالعمل وأسلِّمه لإدارة الشركة.

أضاف ساخطًا:

– حتى إن لم تقدِّمي استقالتك كنتُ سأفصلكِ عن العمل وسأُرفق التقرير حتى لا تستطيعي العمل في مكان آخر.

نظرتْ إليه بسخرية وتركته غارقًا في نيرانه.

لمزه زميله معتز ضاحكًا:

– أصبح القسم خاليًا من النساء بفضلك يا بيومي، أخشى أن يتركن جميعهن الشركة.

كتم دمعة داخل عينه، وضع يده على صدره حانقًا، شعرَ بغُصة، بل هي ذبحة تنوء عن مخزون غضبه المكتوم.

ليليث

خنجرٌ يُطعَنُ في قلبه، ودماءٌ تسيل.

يتراءى إليها المشهد في صحوها ونومها وهو يُنازع حتى تفيض روحه، وقبل أن تفيض تدعس فوق صدره بقدميها، ثم تأتي بامرأتين هما عشيقتاه، تُسحَلان أرضًا، تأمُر الرجال بتعليق المرأتين فوق أعمدة من اليمين ومن الشمال، وهو يحتضر على الأرض بينهما. ثم تُعري كُلٍ مِنهما أمام الأخرى، ترمقهما بازدراء في ثوبها الأحمر الجذَّاب وجسدها الوضَّاء المُزيَّن بالمجوهرات، تنفرج شفتاها الحمراوان عن نصف ضحكة اِنتصار ممزوجة بالسخرية من مُفارقة جمالها الصارخ أمام جسدين لانثيين أقرب لملامح الذكور.

لا تدري من سدَّد إليه تلك الطعنة، ولكن رؤية دمائه المُسالة وتعبيرات وجهه المُتألِّمة تريحها وتُهنِئ قلبها.

تجلس أمام مرآتها داخل حجرتها بالغة الثراء بوجهٍ صافٍ من المساحيق، وعينين هادئتين. تتلقى مكالمة من مساعدتها الخاصة بمصنع المنسوجات الذي تمتلكه، تُذَكِّرها بموعد الاجتماع مع الشركة الأجنبية التي ستستورد مشغولاتهم اليدوية. تكتفي بماسكارا وأحمر شفاه كرزي من ماركتين باهظتين الثمن، تبتسم ابتسامة صافية مُشِعَّة، هل ستكون ابتسامتها تلك المرة صادقة؟

تأتيها صورتها من الأيام الخوالي:

وجهٌ شاحب، شفاهٌ يابسة، تتذكر وهي مُمسكة بإبرة الكروشيه تصنع لزوجها كوفيَّة بسعادة، يُصر المرض على تنغيص لحظاتها المُمتعة، تُقاوم الألم، ولكن يُصر على الانتصار، فتفتح له المجال حتى ينهي مهمته ويغادر.

لحظات، دقائق، ساعات والألم لم ينتهِ منها، لا يتركها لا للموت ولا للحياة؛ تركها للغياب.

أفاقتْ في الغرفة وحيدة تتلفتْ باحثة عنه، ترك لها رسالة بأنه أُضطِر للسفر.

طفرتْ دمعة من عينها، هل يهرب من لحظات مرضها؟ ألا يدعمها وقد دعمته في أصعب أوقاتهُ؛ سنوات وهي تجود عليه بوقتها وجهدها ومالها من اشتغالها بالأعمال اليدوية البسيطة حتى وصل للمكانة التي عليها.

شكوك ترودها منذ مُدة عن وجود امرأة، ثم أخذتْ الشكوك تنحسر حينًا، فمستحيل وجوده مع تلك المرأة، لا مجال للمقارنة. بحثتْ عن صفحتها على السوشيال ميديا فوجدتْ صورًا تجمعهما.

أتتها صاعقة فوق صاعقة مرضها الذي كان عرضيًّا، ثم ازدادَ سوءًا بسبب سلوكياته معها. بل أنه لم يكتفِ بوجودها وامرأة أخرى، بل توجد الثالثة!

ماذا تفعل هاتان المرأتان في حياته؟

لم تأخذ وقتًا طويلاً حتى تُدرِك أن القبيحين للقبيحات، وأن هاتين المرأتين، وغيرهما، وجميع البشر؛ محطات في حياته.

بل أن تشبثه بهما لأنهما يشبهانه؛ نفعيتان ووصوليتان مثله. وهي بكل بهائها لم تكفه، كانت محطة لجذبهما.

أدركتْ، ونهضتْ من سريرها، عزمتْ على التعافي، ثم الانتقام.

تتعجب من مقولة أن «الحُب لا يعرف الكراهية». ولكن عندما يمتزج بالخداع والبُهتان، سيكون الانتقام بنفس قوة الحُبّ، أو أضعاف.

الانتقام وجبة تُؤكَل لذيذة

شعرَ بغُصَّة وهو يتذكّر الأحداث، نظر إلى طبيبه ولا يزال سيران أفكاره لم يتوقف:

– أرجو أن تخبرني يا دكتور؛ لِمَ تدعون دائمًا للتسامح والعفو بحجة تحقيق السلام النفسي؟ أنا لم أستطع أن أُسامح يومًا.

ثم نظرَ جانبًا إلى الفراغ محاولًا حبس دمعة تحجرتْ داخل مُقلته:

– لم أنسَ مهما حاولت، بل أنني كلما حاولتُ أُصِبتُ بالقهر.

ابتسم الطبيب وهو يُقرِّب إليه عُلبة المناديل:

– الطب النفسي لم يُنادي بشيءٍ من هذا القبيل، مَنْ قال إنه يجب أن تُسامح جبرًا؟

أجابه:

– مدارس التنمية البشرية.

اتسعتْ ابتسامة الطبيب:

– أعتقد أن المُفارقة في تلك النظريات أنها أخطر الأشياء ضررًا بالسلام النفسي والبدني إن أُسِيء فهمها؛ يوجد فارق بين التسامح وترك الذكريات للمُضي قُدُمًا.

ثم تابع:

– يستطيع المرء أن يتناسى موقِفًا ما، لكنه لن ينسَ؛ سيظل راسخًا في الذاكرة، يومض من حينٍ لآخر في أحلامه، أو يأتي إليه مُباغِتًا كالقنبلة الموقوتة. كبت الذكريات يولِّد أمراض النفس والبدن وضعف القلب، لن ينعم المرء ويغفو على وسادته متناسيًا حقه مرتضيًا بالظلم، لن يشعر بالسلام حتى تُنزَع تلك الذكريات من جذورها ويُعاقَب من يستحق العقاب.

أومأ في أسى:

– هذا ما يحدث لي تمامًا؛ أتألم غدوًا وعشيًّا؛ روحي لا تهدأ.

– ستهدأ، ألا يقولون في الأمثال الشعبية إن «أخذ الحق حِرفة»؟

أُضيءَ وجهه كأنما شعرَ ببادرة أمل:

– نعم أعتقد أن الأمثال الشعبية تُعبِّر كثيرًا عن الواقع.

أومأ الطبيب:

– وأنا أعتقد أنها ليست مجرد حِرفة؛ وإنما استعانة بالحق ومُثابرة وسعي، البعض يعتقد أن هذا يعني استخدام الأساليب المُلتوية كالمُعتدي أو كما يقولون «الحرب خُدعة» لكني لا أعتقد ذلك.

ثم سأله الطبيب:

– ما الذي يميِّز الحرفيّ الماهر؟

نظرَ جانبًا لأعلى ثم قال:

– الخبرة والموهبة والصدق وحُسن التعامل مع الزبائن.

أضاف الطبيب:

– والفن والتأني؛ كصانع التُّحف يجلس في هدوء، مُعتمِدًا على مهارته لإخراج أفضل ما لدي; في تركيز ومتعة، وهكذا ستكون أنت.

ثم سأله:

– لِمَ لا تُفتِّش عن كنوزك؟ فكل إنسان يمتلك الكثير من القوة والإبداعات الدفينة.

أطرق والدموع لا زالتْ متحجرة في عينيه:

– كما أخبرتك يا دكتور؛ أنا لا أقوى على العودة إلى حياتي المعتادة، ولا على النسيان.

أخبره الطبيب:

– ستكون الخطوات الأولى ثقيلة، لكن عليك الركض بكل قوة في الاتجاه المعاكس وحتمًا ستصل لمكان أفضل من الثبات على نفس الحال. وأجزِمُ لك، بأن الدائرة ستدور؛ فمِن قوانين الحياة أن الأيام تدور وتضع المُسيئ أمام من أساء إليه، لأنه دائمًا ما يكون صاحب الحق هو الأعلى؛ هو من بذلَ أفضل ما لديه، أما المُسيء فهو المفلس الذي يتغذى على الآخرين ثم يطعنهم.

صمت الطبيب ثم أشار إليه محاوِلًا غرس الحماسة داخله:

– ستخطو خطواتك للأمام، وبعد سنوات قليلة ستنظر خلفك لترى المُسيء لا يزال على نفس حاله؛ في بؤسه وصراعاته، لأنكَ لم تكن خِصمه الوحيد ولا الآخرين، بل ذاته.

ظلَّ يستمع لحديث الطبيب وكأن شيئًا أثلج صدره، ثم نغض رأسه في حيرة:

– لكن جميع الأديان تحث على وجوب العفو.

هزَّ الطبيب رأسه:

– البعض يقتطع جُزءًا من الحقائق ويسِيئ التفسيرات، فالعفو يأتي بعد النصر كما كان الأنبياء والقادة النبلاء يفعلون مع أسرى الحرب؛ العفو هو التنازل عن الحق مع القدرة على أخذه. والآن، هل لي أن أسألك عن حالة المُسيئ إليك؛ هل هو ضعيف؟ أم مُعتدي مُتجبِر؟ هل أتى نادمًا مُتأسفًا مُتعهدًا أن يصلح ما بدر منه؟

أجاب بأسى:

– مُطلقًا

– إذًا فلم التطوع بالعفو والاعتقاد أن ذلك من نُبل الأخلاق.

ثم أضاف مُمازحًا:

– بعض أنصار السلام يخادعون أنفسهم ليرتضوا بقلة الحيلة والهوان.

– ماذا إن أتى المُعتدي يطلب العفو؟

– في اعتقادك لِمَ سيأتِ؟

فكَّر برهة ثم نطق:

– إما نادمًا وإما مجبورًا أو مُتلاعبًا من أجل مصلحةٍ ما...

قاطعه الطبيب:

– أو ليفلت من العقاب.

ثم سأله:

– هل سيعوِّض ما أفسده؟ هناك قاعدة عامة تقول: كلُ أسفٍ لا يتبعه إصلاح هو خِداع.

هربتْ دمعة من عينه:

– ماذا إن كان صاحب الحق ضعيفًا؟

نظر إليه مُستعتبًا:

– يوجد قوم ضعفاء، مرضى أو لا يملكون قوت يومهم، هؤلاء يُسخِّر اللَّه لهم من ينجدهم، أما المتهاونون عن حقوقهم فهم الظالمون لأنفسهم ويستحقون مِن الله نزع نِعَمه عنهم؛ فكُل مُعتدٍ هو مريض القلب، وإن تم التهاون أو التغافل عن معاقبته سيعاود الكرَّة بإيذاء الآخرين، لذا يجب أن يُقَام العدل حتى يتوازن الكون.

ثم أشار الطبيب إليه:

– لكن دعني أنبهكَ لأمر: ليست كُل المعارك تستحق أن نخوضها، ففي الهزيمةِ أحيانًا نصرٌ عظيم؛ ربما أنكَ في خوضك لتلك الحرب أفلتَ شيئًا أعظم ونصرًا أكبر. النُّضج هو أن تتعلَّم الدرس؛ تحدَّ الثقة في الآخرين، تحرص على كلماتك لأنك لا تعلم متى ستُغتنَم ضدك. لا تضحك في وجه من خَبُرتَ حقيقته، هو طريق مستقيم، فلا تسلك الطُّرق الموازية، صُنْ روحك؛ فلا تستنفدها في أمورٍ لا تستحق مع أشخاصٍ متلونين، دعهم يعمهون في طُرقهم المُلتفَّة. أما من طعنك غدرًا فلا تلتفت إليه حتى تستعيد قواك وتتشافى،

ثم في اللحظة المواتية ستلتفتَ إليه وتطعنه بنفس السكين طعناتٍ هائلة مُضاعَفة. وإن عفوتَ فاعلم أن العفو عِند المقدرة عن المُتأسِّف والمُستضعَف، لا عن المُعتدِي المتجبِّر.

أنفُس بلا روح

أخذتْ تتفحَّص ملامحه في اقتطاب، لاحظتْ ارتداءه بذة باهظة الثمن لكنها تقليدية، كان يتحدث مع والدتها بلباقة مُصطنعة. دخلتْ المجلس وألقتْ السلام وهي على اقتطابها، نهض ومدَّ كفَّ يده ليصافحها، فمدَّت له أطراف أصابعها.

تفحَّصها بدقة كأنه أتى يُعايِن سيارةً أو عقارًا، تأذَّتْ من نظراته الفجَّة وكأنها تخترقها، أما هو فأخذتْ أساريره تنفرج في انبهار وكأن مواصفاتها لاقتْ قبولًا لديه حسب مقاييس مشروعه للزواج.

تنحنحتْ والدتها ثم تركتهما حتى تعطي لهما المجال.

سألها أسئلة كثيرة كأنها مقابلة لوظيفة، وهي تُجيب في اقتضاب.

ثم ابتدرها في تردُد:

– اسمحي لي بطلب أُريدك أن تنفذيه بعد الزواج.

سألته في تهكُّم:

– وهل قررتَ الزواج بي دون موافقتي؟!

شعر بالخجل فأراد أن يُبرِّر:

– لم أقصصصد.

قاطعته:

– وما هو طلبك؟ أخبرني.

ازداد ارتباكه، حاول السيطرة على اهتزاز يده وهو يفركها متوترًا:

– أرى أنكِ فاتنة الجمال؛ كما أن لديكِ شَعرٌ جميل، أريدك أن تغطيه.

ابتسمتْ وهي تنظر جانبًا، ثم عادتْ للنظر إليه:

– ليس لدي مانع. ولكن، لديّ فضول، فهل لي أن أسألك؟

شعر بالرضا واتسعت ابتسامته:

– بالطبع اسألي كيفما تشائين.

– لماذا لم تذهب لفتاة بهذه المواصفات؛ ترتدي الزي الذي يناسب قناعاتك؟ أم أنكَ فضَّلت أن تُعاين أولًا؟

فاجأته جرأتها.

– لا أبدًا، ولكنكِ لديكِ جميع المواصفات التي أرغبها، ماعدا سفورك هذا، فأردتُ أن أحوز بثواب هدايتك.

رفعتْ حاجبيها بامتعاض:

– وما هو مفهوم الضلال لديك؟ وهل تراني ضالة؟

– العفو، ولكن تغطية رأس المرأة فرض ويجب أن.....

– هل من يفرضه هو الله أم أنت؟

– ماذاااا؟

– أقصد نحن لسنا بصدد مناقشة الفرضية الإلهية، ولكني

أُناقشك عن الفرضية البشريّة؛ هل يجوز لك كبشريّ أن تفرض فروض الله على بشريٍّ آخر بالإجبار؟

تبدَّلتْ نبرة صوته من الهدوء واللطف إلى الحزم:

– نعم. بل يجب على الرجل أن يفرض على المرأة أيّ شيء، وهي عليها الطاعة، وإلا سيكون ديوثًا.

ابتسمتْ:

– إذًا ما الفارق بين تلك المعتقدات ومعتقدات الجماعات المتطرفة؟

نظر صامتًا في حنق، فتابعتْ:

– ثم لِمَ أيها الرجل ذو المروءة تكون سلبيًا في محيط العمل والشارع؛ لِمَ لا تُحرِّك ساكنًا إن رأيتَ الباطل؟ فلا تقف في وجه الموظف المرتشي، أو مديرك المتعسِّف؟

ثم أضافتْ:

– أعلم أن المناقشة لن تُجدي، ولكني أردتُ أن أوضِّح لك بعض الأمور حتى تحسم قرارك.

قاطعها غاضبًا:

– لِمَ تتحدثين بغلظة؟ فلا يجوز للمرأة التحدَّث هكذا.

هتفتْ:

– وعلى أساس قناعاتك تلك فلكَ أن تمنعني من الأشياء التي أُحبها وأرغبها إن أردتَ، أليس كذلك؟

– بالطبع، كما أخبرتك؛ على المرأة طاعة زوجها.

– جبرًا؟

– نعم، وليكن.

– إذًا أين المودة والرحمة والسكن والإيثار وكل المعاني القيمة بين الزوجين؟

ثم أضافتْ:

– أعتقد أننا وصلنا لنهاية النقاش.

قاطعها هاتفًا:

– إن كان ليس لديكِ الرغبة في الزواج فلِمَ دعوتوموني إلى منزلكم؟

– أنا لم أدعوك بل والدتي، بالأحرى أنت دعوتَ نفسك.

– نعم أردتُ دخول البيوت من أبوابها.

– تعلمُ أنكَ إن كنتَ عرضتَ علي طلبك فلن أقبل، فأردتَ أن تستغل عواطف والدتي للضغط علي، ورغم ذلك فكرتُ بإعطاء فرصة التعارف، وها أنا أجلس أمامك تحت تأثير هذا الضغط، حتى لأُثبِت لنفسي ولكما صحة نظريتي.

سألها:

– وما هي نظريتك؟ هل التعارف بعيًدا عن البيت خارج العادات والتقاليد؟

ظلّتْ على ابتسامتها:

– إنما سيأتي القدرُ بنصفي الآخر في أيّ مكان وفي الساعةِ الموعودة، فنعيش في مودة ورحمة.

– وكيف تعلمين أنه نصفك الآخر دون منح الفرصة.

– سأعلم، أما أنتَ فاعلمُ أنك لستَ نصفي الآخر؛ من أتى ليتزوج فتاة لا يعرفها ولم يُصادفها ولم يُلقِ اللَّه في قلبه قَبولها، وإنما قبول مُصطنَع حتى يُمهِّد لنفسه إقامة مشروع زواج حسب المواصفات واضعًا التعليمات والإرشادات التي يرغبها هو وكأنه مشروع مادي، ثم يأتي ليعاين مقاييس الجودة، يجوز أن مشروع زواج كهذا سيستمر، ربما يحمل سعادة زائفة، لكنه في الحقيقة تعس، مادي، بلا روح. لعل مشروعك يلقى متطلباته مع فتاة لها نفس متطلباتك مثل مهر كبير أعلى من مهور صديقاتها وقريباتها، وزفاف تتباهى به أمام الجميع، فكما أنك لكَ شروطًا فللآخرين أيضًا، عندها تعيشان سعادة زائفة أمام الجميع.

مُسوخ

لم ينل القدر الكافي من النوم طوال الليل كعادته، رغم سكنه في الحي الهادئ الذي كان يُعَدُّ فيما مضى من الأحياء الراقية، قبل أن يتبدَّل قاطنوه وسلوكياتهم، فالجيران لا يكُفون عن الصراخ؛ دائمًا ما يكون صوت التلفاز عاليًا، أو أن أحدهم يقف في الشُرفة يتحدث في الهاتف بجانب أذنيه بالساعات، وليته حديثٌ عاديّ، وإنما يُزمجِر كصوت دابة تُنازع الروح! أما عن أصوات مُكيفات الهواء التالفة ومواتير المياه المُتحشرجة ودراجات عُمَّال الدليفري وسارينات إنذارات السيارات، فلا تهدأ الأصوات حتى الفجر.

تغفو عيناه قليلًا، ثم تبدأ طرقعة عامل الأنابيب بالحديد، وصياح بائع الخضار المُتجوِّل، وبعدها بساعات قليلة يطوف عامل الأنابيب مرة أخرى، ولكن بصحبته بائع الروبابيكيا هذة المرة.

«اللعنة عليهم جميعًا! ألا يوجد بارقة من التحضر والإنسانية، اليوم أجازتي، علي أن أتفرغ قليلًا لرسالة الدكتوراة»

بدأ يفكِّر كم ستكلِّفه ميزانية عزل الصوت لشقته، وإن فعلها؛ ماذا إن أراد أن يفتح النافذة ليتنسَّم الهواء داخل منزله.

تمنَّى لو يسكن في أحد تلك الكمبوندات الراقية الآمنة التي تُحرِّم الضجيج. هل عليه أن يمتلك الملايين من الأموال ليشعر بآدميته؟

أحضرتْ زوجته القهوة، اقترحتْ عليه الراحة قليلًا بسبب تلف أعصابه جراء الإزعاج، أخذتْ تلاطفه، فأحسَّ بحنينٍ إليها، كان الجفاء قد ازداد بينهما؛ فلا مجال للشاعرية أو أن يُصغي الإنسان لأفكاره في تلك الأجواء.

بدأ يحتضنها ويملِّس على شعرها، وما أن دلفا إلى حجرتهما حتى بدأ أحد الجيران بفتح صوت الشنيور. وفجأة أصابه الدوار من شدة الصوت. وقع مغشيًا عليه.

فتح عينيه، رأى مصابيح باهتة مُنفرِّة على سقف الغرفة، ووصولات مربوطة بجسده وزوجتة تترقبه ليستفيق، ناداها بصوتٍ واهن فبدأتْ تنتحب، كان التورُّم البادي على عينيها ينم عن أن أنها لم تتوقف عن البكاء لحظة.

رفعتْ يديها حمدًا لله، حاولتْ أن تُسيطر على بكائها بصعوبة ثم نطقتْ:

- فقدتَ الوعي يا عزيزي، أنت في غيبوبة دامت ثلاثة أيام، ارتفع ضغطك بشكل جنوني مما أدَّى لحدوث تجلّط، لولا لطف الله كان الوضع تفاقم.

شعرَ بثقل في الجانب الأيسر من جسده، شدَّ على يدها بصعوبة:

- ما رأيك أن نترك الضجيج الذي نغَّص عيشنا ونعود

قريتنا وأن أنقل عملي إلى المحافظة؟

تفاجأتْ:

- ولكن البدلات والمكافآت هنا مُجزية.

أشاح بكفه:

- هذا المال كاد أن يودي بحياتنا، الله كرَّم خلقنا وأهدانا صفاء الطبيعة، لسنا بمسوخ لتحمُّل كل هذا العبث.

نوبة هلع

كانتْ تتأوه في صمت، تحمل على عاتقها آلام جسدها المُبهَمة وأشباح الخوف البعيدة، كأنها تقع دائمًا تحت وطأة المجهول. كلُ شيء تآمر ضدها في تلك اللحظة؛ آلام جسدها والخوف.

شعورٌ مهولٌ بالغثيان وأنامل الموت تزحف على روحها، وتلقي بثِقالها على صدرها، فتضيق أنفاسها وتتصارع دقات قلبها بجنون، كأنه على وشك السُكون الأبدي.

لم تُقاوِم أكثر، تركتْ كل شيء ينال منها، تَرجَّت قلبها أن يحسم موقفه سريعًا ويُنهي عذابها، وإن كان سيصمت، فليصمت إلى الأبد.

ظلَّتْ تنتظر، متى يحين الخلاص؛ الخلاص الدنيوي أو الأبدي، فليكُن.

كانت تنتظر في رُدهة المعرض جالسة على الكرسي المخملي المُذَّهب تتطلع إلى نفسها في مرأة الحائط الفخمة وأرجلها ترتعش على السجاد الأحمر، يبدو أن مظهرها لم يتبعثر كثيرًا. ما زالتْ تسريحة شعرها كما هي، فستانها القصير على رُكبتيها اللافت لجمالها، أحمر شفتيها. لكنها لاحظتْ كُحلها السَّائح أسفل عينيها من أثر دموع الألم. نهضتْ وتوجَّهتْ إلى

الحمام، أصلحتْ مكياجها، فتحت حقيبتها، رشت بعض العطر لإنعاشها، ولا يزال شعور الغثيان ورجيف قلبها ينالان منها.

عادتْ إلى ردهة المعرض في انتظار صديقتها لحضور معرض لوحاتها الفنية.

فجأة بدأتْ دقات قلبها تثور عليها مُجددًا، اللعنة! تلك المرة لا تستطيع التقاط أنفاسها، يزداد شعور الغثيان، قلبها ينبض بجنون، يزداد، يتصارع، تكاد أضلعها تنخلع، تتعرق، تشعر ببرودة أطرافها.

أمسكتْ هاتفها:

– ألو، نهلة، تأخرتِ كثيرًا، لستُ على ما يُرام، لن أبقى كثيرًا داخل المعرض، سأحضر لبضع دقائق ومن ثَم أنصرف.

حاولتْ مقاومة ذلك الشعور وإلهاء عقلها في شيءٍ آخر، إلى أن رأته.

تلاقت الأعين، نظرة من مجهول من بعيد، يبتسم كأنه يربت على ألمها، يرمش بعينيه، يُطمئنها ألا تخف.

بدأتْ تتراجع الآلام، أو كأنما تناستها، كأن الآلام وقفت لتأخذ هُدنة وتلتقط أنفاسها في استراحة قصيرة. انسحبت أنامل الموت قليلًا وهدأت أنفاسها وانحسر تصارع دقات قلبها.

كان جالسًا وحدقتاه مأخوذتان بحضورها، بضِعفها وإعيائها وصلابتها وجمالها الواهن.

رأته يتجه إليها...

– هل أنتِ على ما يرام؟

ارتبكتْ:

– لا، لا أدري، أشعر أني لستُ على ما يرام.

– بماذا تشعرين؟

– أشعر أن أنفاسي... قلبي...

حاولتْ القبض على أصابعها المرتعشة.

– أشعرُ برجفة ودوار.

ثم ازداد ارتباكها، لِمَ عليها أن تشرح آلامها لمجهول؟

نهضتْ:

– يبدو أنني أحتاج لبعض الراحة، سأعود للمنزل.

ابتدرها:

– هل لديكِ أمراض ضغط... سكري؟

أجابت بالنفي.

سألها:

– هل تشعرين بألم؟

أجابت بالنفي.

– أستطيع أن أُقلك إلى المشفى إن أردتِ، لكني أعتقد أن ما تمرّين به هو نوبة هلع.

مدَّ يده ليصافحها، ربت على كفِّها، فشعرتْ بالطمأنينة.

– أنا د. شريف. طبيب نفسي.

ثم أخرج كارتًا من جيب قميصه وناولها إياه.

مدَّتْ يدها، أخذتْه بتلقائية.

– إن أردتِ تشريفي في عيادتي، ولكن الآن...

لم يُكمل عبارته، أخرج من جيبه ورقة وقلمًا وكتب عليها ثم ناولها الورقة:

– هذا مهدِّىء لطيف مؤقتًا، لكن أرجو ألا تستمري عليه قبل رؤية طبيب.

أخذتْ الورقة في تردد:

– شكرًا لك، ولكني.....

ثم استشعرتْ موضع قلبها بيدها...

طمأنها بنظرةٍ حانية:

– لا تقلقي، ستكونين على ما يرام.

بادلتْ النظرة الحانية بنظرة اِمتنان.

لِمَ شعرت بالاِطمئنان لذلك المجهول، وكأن آلام شهور طوال امتُصَت بنظرة واحدة؟

شعرتْ أميرة بسلامٍ نزلَ على قلبِها، كانت مُتحيِّرة، عادتْ لتستريح في سريرها بعد تناولها الدواء، تحاول أن تقاوِم. ستقاوم الألم، ففي النهاية هو مجرد نوبة هلع... ولكن ماذا يعني هلع؟!

تومض شاشة هاتفها... أمجد يتصل، تلتقط الهاتف:

– أهلًا، لا داعِ، كفاكَ يا أمجد أنا بخير...لا... لا أُخفي عليك شيئًا.

أغلقتْ الهاتف في غضب، أضحى تواجد طليقها يثيرُ حنقها في الآونة الآخيرة، كل كلمة منه تدهس كل عصب في مخها وجسدها حتى أصبحتْ أعصابها تصرخ وتأن.

شعرتْ براحة أكثر بعد طلاقها، رغم أن عليها دفع ضريبة الطلاق وحدها في مجتمع يفرض قيوده وتساؤلاته، والأكثر استغلاله.

كل شيء يدفعها للبكاء الصامت، كان عليها أن تنجب كما تريد حماتها، كيف ستنجب وهي تكره لقاء زوجها؟! تزوجتْ لأن عليها أن تتزوج، ثلاث سنوات دون اِنجاب، سنوات وهي تحاول التأقلم على الحياة الزوجية وأن تتقبله كزوج وحبيب، وإن كانت الأخيرة مستحيلة.

الآن توقفتْ عن المحاولات وتمَّ الطلاق، لكنها مترددة في العودةِ إليه.

تذكَّرتْ كارت دكتور شريف، يجب أن تحاول الوصول للسلام النفسي بطُرق أخرى.

•••

استقبلها في العيادة بترحابٍ واضح...

– كنتُ يئستُ من مجيئك.

اندهشتْ، هل كان ينتظر مجيئها؟!

قطع تفكيرها:

– سنبدأ، حاولي أخذ نفس عميق، شهيق بهدوء، عدي حتى أربعة، ثم زفير باسترخاء، عِدي حتى ثمانية.

بدأتْ تستجيب وتتنفس، أخبرها أن تُكرِّر الشهيق والزفير على هذا النحو ثلاث مرات.

– الآن أخبريني عن سبب بُكائكِ الكثير ليلًا.

اندهشتْ.

أضاف:

– حتى أنكِ تكونين وسط صديقاتك أو في تجمُّع وتذهبين للبكاء وحدك.

– من أين سأبدأ يا دكتور؟ هل من تكرار العلاقات العاطفية الفاشلة، أم من الخِذلان، أم الزواج أخيرًا من الشخص الخطأ؟

– «الحياة تجارب».

قالها ثم ابتسم، قبل أن يضيف:

– وكما تقول الأسطورة الشهيرة: على الأميرة أن تُقبِّل الكثير من الضفادع حتى تُقابِل الأمير الحقيقي.

ضحكتْ، شعرتْ بارتياح.

حسمتْ موقفها بعد الجلسة الثانية: لن تعود إلى أمجد.

تكررتْ الجلسات النفسية، ثم بدأت بالتحول إلى جلسات بشكلٍ أخر؛ جلسات عاطفية مدفوعة الأجر!

– أعترفُ يا أميرة أنني أحببتكِ منذ أول لقاء، لفتَ نظري جمالك الهادئ وفستانك الجذاب.

ثم انحنى وقبَّل يدها.

أخبرتْه أنها ازدادتْ جمالًا وقوة، وأنها تشعر بالميل إليه.

انتقلتْ الجلسات إلى مكانٍ آخر؛ إلى بيته، ثم تحولتْ إلى علاقة أقوى.

دامتْ العلاقة أشهر، أخبرها بعدها أن لديه سفريات في الفترة القادمة.

شعرتْ بالوحدة مُجددًا، مع استمرار ملاحقات أمجد التي تثير أعصابها. فكَّرت أنه ربما يكُفّ عن مضايقتها إن تزوجتْ شريف.

أخذها الحنين إلى الشارع محل سُكناه، فربما تشعر براحة عند استرجاع الذكرى. أدهشها وجود الأضواء مُنارة داخل المنزل، فابتسمتْ، هل عاد؟!

صعدتْ السُلم، دقَّتْ الجرس...

لتتفاجأ بوجود أميرة أخرى.

من سيصدِّق أولئك الفتيات، إن صَدُفَ وجرأتْ واحدة منهن على شكايته.

صوت داخلي أخبرها:

– كان على الأميرة ألا تُقبِّل الكثير من الضفادع حتى لا تعتاد على ذلك.

فجأة شعرتْ بنوبة هلع أقوى من ذي قبل.

كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِين

يخسر الجميع من أجل امرأة. كان خيارها لينتشلها وتتباهى به أمام من استعلوا عليها يومًا. تُخطِّط وتنصب الشباك لاصطياده، ثم تتوغل داخل كيانه ومحيطه حتى يسمح لها ببث سمومها وإثارة الفتن، يخسر سعادته وراحته واطمئنانه.

تمرُّ سنوات العُمر ساقطًا في مُستنقعها بدلًا أن ينتشلها، ثم يغرس بذوره في أرضٍ آسنة فيكون الطرح كطرح ابن نوح. عندها يتساءل الجميع : «لِمَ؟»

هل كانت جميلة؟ ذات حسب ونسب؟ راشدة؟ عطوف؟ قنوعة؟ هل حَفِظت بيتك ومالك؟

جميع الإجابات تأتي بـ «لا»

إذًا، لِمَ أنفقتَ سنوات العُمر في ذلك البؤس، وخُضتَ معارك ومناوشات بلا معنى، وأبحرتَ بين الظُلُماتِ بلا وِجهة؟

المُتلاعبون

أتى إلى صديقه مهزومًا يبكي خِذلانهم، وفوق الخِذلان أقنعوه بأنه المُذنب، فأصبح تائهًا، هل يصدِّق ذاته أم يصدِّقهم؟

في تصدِيقه لهم هدم لذاته، وفي تصدِيقه لذاته شعورٌ أكبر بالألم والغدر.

ربتَ صديقه على كتفه:

– إياكَ يا صديقي أنا تقع في شباكهم، إياكَ أن يجردوك من إنسانيتك وسعادتك، فأنت لديكَ ما يفتقدونه وهو قَلبُكَ وقدرتك على صُنع تلك السعادة. سيُقنعونك بأنك المُذنب، سيوغرون نقاط ضعفك، سيبعدون ناظريك عن جُرمهم، فلا تستجب لهم. لأنه لا يوجد مبرِر للأذى والحقد سوى ثقب أسود في الروح؛ شعور مؤلم بالدونية يقضُّ المضاجع كل ليلة، فلا تستعتبهم، وامضِ.

«ظَلُومًا جَهُولًا»

هي شُعلة من نورٍ ونار، تجتذب جميع الكائنات، الأشجار والأمواج؛ الكون في قبضتها، لأنها الأنثى.

خاضتْ معارك أسقطتها تارةً ورفعتها تارةً أخرى، ولمَّا أحبَّته أمَّنته قلبها بغريزتها، احتمتْ خلفه كرجل، ألقتْ بتاجها وأجلسته جانب عرشها، مُلقية بجميع أثقالها إليه، وجميع المعارك التي خاضتها. أليس رَجُلها؟

لكنها لم يكن عليها أن تبذل نفسها وتعطي قلبها بجَذَل، مهما كان فارسًا، ألم يُخلَق الإنسان جهولًا؟

ذاقَ جنَّتها وارتوى من كأسها، ولمَّا ناء بحِمل أثقالها؛ ثار عليها ودعس قلبها.

كان عليها الرجوع خطوات للخلف، وأن تقبض مشاعرها عن ما بذلته.

يشعرُ الإنسان بالنِعَم عند نزعها، حينها يصبح شاكرًا.

فما كان منها إلا أن وَصِبت قلبه بابتعادها، ومزَّقته من العشق والغيرة...

فعاد إليها راكعًا راجيًا.

أنتَ من تَخُطُّ صفحتك

شهورٌ وهي تحاول الوصول لقلبه مُجددًا لتتم العودة، لا تدرِ ما حلَّ بقلبه، وأين الحُب الثمين الذي كان يحمله لها. استخدمتْ جُلَّ الطرق للوصل؛ بالشدة تارة وباللين، بفتح أبواب الذكرى الجميلة بينهما ليحنّ إليها.

أحيانًا كان يبدو لها أنه يلين بعض الشيء، إلا أن الصَّدع الذي حدث جرَّاء تدخُّل الآخرين بينهما جعل قلبه يتحجر مجدَّدًا، وكأنما أسقوه شراب النسيان لينسى حُبها، وفوق شراب النسيان وضعوا قطرات من البُغض. من كان يراها ملاكه، أضحى الآن يراها كائنًا مُخيفًا، عليه القفز من سفينة جحيمها. الوغر والمقت وراء كل شيء.

هل ستقبل هي بالهزيمة؟

يقولون ما تنظر إليه ينظر إليك، ومن ابتغى شيئًا ناله.

صوتٌ داخلها يسألها الهدوء:

(مهما بدا الأمر صعبًا، لكن لا تنسيْ أنه كان يومًا يُكنُّ لكِ حُبًّا حقيقيًا، لا تردميه برمال الخوف والغيرة. لا تخوضي حروبًا، اطفئي نيران الغضب فهي لن تحل شيئًا.

من زرع بذرة عليه الانتظار ليرى الطرح، كيف ستنمو البذرة والتربة تُنبَش من حينٍ لآخر؟!

اسقي بذرة صبرك كل يوم، ترفَّعي بالصمت، كوني نجمة في السماء، عطوفة لكن أبيَّة، لا توضحي ولا تفسِّري. الإلهات لا يُجادِلنَّ عن أنفسهن. كل شيء حدث معلوم، الزمن كفيل بالكشف والحقيقة ستأتي تُخبِرعن نفسها.

ابدأي صفحة جديدة أنتِ من تَخُطِّينها. تذكَّري جوهرك، لا تلتفتي للأحداث، ثقي أنه لكِ واطمئني).

بعد وقت قليل فاجئها طالبًا العودة، حنين جارف يأخده إليها أكثرمن ذي قبل.

كالظمآن بعد السير ليالٍ في صحراء مُظلمة عادَ إلى نورها. ولكي يهتدي إليها كان عليها البحث عن نورها الداخلي لتُضيء له طريق العودة.

كانت هي من خَطَّت صفحتها، وكان على الراغب بالعودة لقلبها بَذل تأشيرة الدخول. غيرأنها ستكون باهظة هذه المرّة.

المؤلفة في سطور

- مترجمة وقاصة وشاعرة.
- باحثة في الدراسات النقدية والأدب المُقارن.
- نُشرت مقالاتها وإبداعاتها في العديد من الصحف والمواقع الإلكترونية.
- حاصلة على ليسانس اللغة الإنجليزية وآدابها من كلية الآداب، جامعة القاهرة.

B.A English language and literature. Department of English. Faculty of Arts, Cairo university

- حاصلة على دبلوم الترجمة الإنجليزية من جامعة القاهرة.

Diploma in English Translation, Cairo university

- شهادة المُدرب المحترف المُعتمَد من الجامعة الأمريكية

Certificate of Achievement in Professional Certified Trainer (PCT) American university in Cairo

- صدر لها:

– غواية نبي: نصوص. شمس للنشر والإعلام. القاهرة، ٢٠٢١

– مُحاكمة إلهة: قصص قصيرة. شمس للنشر والإعلام. القاهرة، ٢٠٢٣

- البريد الإلكتروني: inas.faisal@gmail.com

فهرس القصص

١. أخبار النساء في العصور الغابرة ٩
٢. مُحاكَمة إلهة ٣٣
٣. مَقبَرة مُخمَلِيّة ٤٥
٤. الذبيحة ٤٩
٥. رقصة الحياة ٥٣
٦. نصف رَجُل ٥٧
٧. ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ٦٣
٨. هزيمة صُّعلوك ٧٣
٩. درويشة ٧٧
١٠. زُليخة ٨٥
١١. خَفَايا الرُوح ٩١
١٢. الضوء المُتخافِت ٩٥
١٣. البَلَّورة ٩٩

١٤. مُثلث الخطر ١٠٣
١٥. حَمَّالَةَ الْحَطَب ١٠٧
١٦. كاره النساء ١١٧
١٧. ليليث ١٢١
١٨. الانتقام وجبة تؤكَل لذيذة ١٢٥
١٩. أنفس بلا روح ١٣١
٢٠. مُسوخ ١٣٧
٢١. نوبة هلع ١٤١
٢٢. كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِين ١٤٩
٢٣. المُتلاعِبون ١٥١
٢٤. ظَلُومًا جَهُولاً ١٥٣
٢٥. أنتَ من تَخُطُّ صفحتك ١٥٥

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net